



الرياض - القاهرة

تقديم

بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجبار

نحن تجاه قطعة أدبية إن لم تبلغ الطول الذي اصـطلح عليه عادة نقاد الغرب فهي كذلك ليسـت قصـيرة إلى الحد الذي تدخل به في الكلمات القصـار التي تكتبها الصحف السائرة اليوم كفكرة الأستاذ علي أمين بجريدة الأخبار مثلاً... إنها قطعة بين بين...

ثم هي بعد ذلك فكرة جديدة –أو على الأقل– في إحسـاس كاتبها الأديب السعودي فهي حين كتبها قبل أكثر من ربع قرن لم يكن توفيق الحكيم الأديب الجهير قد أصـدر كتابه "حمار الحكيم" و "حماري قال لي" ولم يترجم كذلك رائعة "خيمنيز" "أنا وحماري" وإذا رجحنا أنه قرأ كتاب "خواطر حمار" للكونتيس "دوسيجور" فإننا نلاحظ أنه لم يسرق من ذلك الكتاب ولم يتأثر بتلك الخواطر أو المذكرات التي يرجح أن توفيق الحكيم قد تأثر بها واقتبس منها.

ولما شـرع حمزة شـحاتة في كتابة سـلسـلة مقالاته الأدبية تحت عنوان "حنفشـعيات" بجريدة "صـوت الحجاز" حرص على أن ينوه في تمهيده لها بما يتوخاه من الجدة والابتكار فقال:

"فليسخر الأدباء من هذه الحنفشعيات. وليقولوا عن أسلوبها إن المتانة تنقصه وإن ألفاظها لا تترابط فنياً أو موسيقياً، وليصبوا عليها كل ما تعلموه من العقاد والمازني وطه حسين ومن كل أديب في مصر وسوريا والمهجر.

ليسخروا ما شاؤوا فإنا لا نختار أن نكذب على الواقع، ولا نختار المشي على أيدينا ورؤوسنا فإنما خلق الله الأقدام وحدها للمشي.

وبعد، فإنا لن نقلد أحداً، ولن نسرق، وحسب القارئ منا هذه الأمانة في الوقت الذي عمت فيه فوضى التقليد، وأصبحت كثرة الأدباء لصوصاً، وغدا الأدب "لصوصية" لا يطلب للبراعة فيها أكثر من جلادة الوجه، وخفة اليد، والصبر على المكابرة."

وسرعان ما ندرك من مفاتح كلامه، أن الكاتب يريد أن يتحدى المتعارف المألوف الذي استقر في نفوس الناس جميعاً من أقدم العصور عن الحمار، وإذا كان الحمار لكثرة ما ركبه من الامتهان أصبح مرادفاً للاحتقار فإن كاتبنا يرى فيه شيئاً جديراً بالاحترام إذ يقول: "في الحمير شيء جدير بالاحترام والدراسة" ثم يمضي في تبيان منافع الحمار، وشباته الظاهرة وأخلاقه السامية.

والواقع أن هذه المقالة يمكن أن تقسم إلى قسمين، لأننا نتبين فيها شيئين:

1- مرافعة عامة عن الحمير ضد بني آدم المستبدين المعتدين.

2- وصف الكاتب لحماره الصغير ورحلته عليه مع صحبه في نزهة قصيرة.

كانت مرافعة قوية ممتعة عن الحمير عامة... تلك التي مهد بها للحديث عن رحلته على حماره الصغير...

تناول بالوصف الصفات الجسمية للحمار، فأشاد بفراهته ولطف حجمه وتناسق حجمه وحلاوة حركاته ونظراته، ونوه بأناقته ووجهاته وابتسامته الخفية وفي ذلك يقول:

..."وفي الحمار خفة، وفي حركاته حلاوة، ونظراته لا تخلو من معان تفيض منها العذوبة.. وفيه أناقة ووجاهة يفوقان كثيراً من الآدميين، وله ابتسامة محجوبة يدركها ويدرك موضع السحر والفتنة فيها كل من يعنيه من أمر الحمير ما عنانا."

حتى صوت الحمار، مع اعترافه بأنه أنكر الأصوات، لم يعدم وسيلة للدفاع عنه وسيلة نفذ منها إلى التنادر على بني آدم والسخرية بأذواقهم، والتماسهم الحرية لأنفسهم دون غيرهم، والتنديد ببعض المطربين والمتشاعرين.

يقول:

"وصوت الحمار من أنكر الأصوات، ما ننفي هذا، أو هو أنكرها، إن كنا نعتبر النعومة والاعتدال، كل مقومات الصوت الحسن، أما إن جربنا في نقد الأصوات على النهج المصري الجديد الذي لا يدين إلا للمقدرة الفنية في التأليف والتوزيع، وأحكام النسب وتحريرها... وإنكار النعومة واعتبارها أنوثة لا تليق بفن إنساني يقود الأفكار والعواطف والمشاعر كالغناء، كان الحمار معدوداً في طليعة الموسيقيين الموهوبين.

وقد يخطر لحمار أن يرفع عقيرته مغنياً ليطرب أمثاله... فيضحك الناس ويمطرونه وابلاً من الشتائم والازدراء. وفي هذا حجر لا شك فيه على الحرية

الشــخصــية كان من الواجب أن يتنزه عنه الإنســان تسـامياً بذاته. وماذا بقي للحمار من الحقوق إن حرم الحرية من استعمال هذا الحق؟؟

والناس؟؟ أليس فيهم من إذا قيس صوت الحمار بصوته، كان آخر القرينين، وأخلاهما يداً من أدلة الفوز؟؟..

والحمـار أرق ذوقـاً في هـذا، فمـا يفـاجئ النـاس [أعني الحمير!] بالغنـاء إلا عندما يكون المجال مهيئاً لمثل هذه المفاجأة، أو تكون المناسبة من دواعيه...

...ولكن الإنسـان يدندن حيثما اتفق له أن يفعل، ويكفي أن تتهيأ له دواع من نفسه، أو من خياله المريض، حتى يندفع في ذلك الهواء المغثي غير عابئ بما يصبه على رؤوس الناس من هول وألم...

والحمار إذا غنى [أي إذا نهق] لا يقول شــــعراً ولا يردد كلاماً فهو في مأمن من اللحن والتكسير، وتقبيح الألفاظ والمعاني ومسخها وتشويهها.. والإنسان على عكس ذلك يجمع على السـامع مصـابين، ويغنيه بحماقتين.. وما لنا نقارن بين الإنسان والحمار وهي مقارنة لا يرضاها كلاهما، على ما نعتقد."

وكما أشـاد بالصفات الحسية للحمار، أشاد كذلك بصفاته المعنوية والخلقية كالنشــاط والجاذبية والقدرة على الاحتمال واللطف والتواضــع والوفاء وإنكار الذات فهو في رأيه من أنشــط الدواب، وأقدرها على احتمال المكاره، وما من شك في أنه كان من أكثر الحيوانات طيبة وفيه جاذبية لا ترد إلا إلى شيء خفي وراء لحمه وجلده وشــياته الظاهرة... وهو جم اللطف والتواضــع وفيه إنكار عميق للذات ووفاء يجب أن يكون مضرب الأمثال...

وأشار إلى ديمقراطيته وهدوئه وأدبه فقال:

"وفيه ديمقراطية تصــرفه عن الخيلاء، فهو أبداً مقضــى على أخلاقه وعاداته وميوله التي يندر أن لا تكون هادئة جداً، في سـبيل إرضـاء صـاحبه أو راكبه.. فيكون مؤدباً على أن يســـير ســـيراً ليناً موزوناً، فيأبى ممتطيه إلا أن ينهب به الأرض ركضـاً كالخيول في الطراد، فلا يجد في ذلك غضـاضــة على ما فيه من إجهاد له، ومصادرة لإرادته وطبعه وإفساد لآدابه وتقاليده."

ويرى في الحمار فكاهة جميلة تدل على ظرف أصـيل، فقد شـاهد ذات مرة حماراً يحمل رجلاً له سمت وأبهة، وكان الحمار مقدراً هذا وشاعراً به، ففي مشيته وقار، واتزان حركاته، دليل على ذلك. واتفق أن أفلت من الرجل صـــوت مســـموع... فحبق الحمار بدوره ملوحاً بذيله في مرح وخبث... وكان الموقف تجاوباً فنياً بين الرصيفين.. اتسعت معه حدود الحرية بعض الشيء."...

وكما دافع عن صـــوت الحمار، دافع كذلك عن حرانه وعناده مؤكداً أن العناد صفة من صفاتنا نحن البشر أسبغناها على الحمير، وفي ذلك يقول:

"والعناد –على أنه رذيلة أو شـذوذ مكروه– إنما هو صـفة من صـفاتنا وليس في نظرة الحمار، وفي مطالب عيشـه ما يقتضـيهن فلم يكن مقدراً للحمير في ما نرجح أن تحمل على ما تأباه فطرتها، وتنكره طبيعتها، ولا أن تحمل، من حماقة غير أبناء جنســـها، وشـــذوذ تصـــرفاتهم ما يثير فيها روح العناد ويقويها حتى تنقلب طبيعة ثابتة أو صفة لاصقة."!!!

ومجمل رأيه في الحمار أنه أكثر الحيوانات شبهاً بالإنسان الكامل من النواحي النفسية والمعنوية يقول:

"ونحسب أن الله خلقه –أي الحمار– على أن يكون خير المخلوقات وأكثرها شبهاً بالإنسان الكامل من الناحية الخلقية، والنفسية وأن يباعد بينهما في الخلقة والإدراك والمقدرة على استخدام الفكر والتصرف بالإرادة ونستبعد أن تقترن بهذه الفضائل الممتازة، رذائل تتنافى في جوهرها، وسماتها الأساسية، مع تلك الفضائل الثابتة."

2 – ثم انتقل إلى وصف حماره ورحلته القصيرة على ظهره، مستهلاً كلامه بقوله:

"أما حماري الذي أمهد للحديث عنه بهذه المقدمة... فهو بدع بين الحمير.. وأقسم بالله أنه لو كان إنساناً لكان مكانه بين من تشتغل الدنيا بذكرهم من العظماء والفنانين ظاهراً ومرموقاً."

وبعد أن وصف حبه للحيوانات الأليفة وما بينه وبينها من تجاوب روحي يمضي في الحديث عن حماره ورحلته ويقول: "وقد أنس حماري –على ما يظهر– مني هذا الشعور الطيب أو تمثله في وجهي أول ما تلاقى نظرانا فانفجرت شفتاه عن ابتسامة فاتنة فمسحت له عنقه، ولعبت أناملي بأذنيه الناعمتين رداً لتحيته الرقيقة، فأخذ صدره يعلو ويهبط تأثراً بهذه العاطفة التي بادلني إياها وبشبقات حارة.

"وأقبل رفاقي على اختيار حميرهم، وكان لكل منهم طريقة تختلف عن طريقة الآخرين وأسفرت عملية الانتخاب عن سقوط حماري فيه لفتور نشاطه وضآلته، وبقي كلانا بلا رفيق فبسطت يدي إليه.. وكنا رفيقين.. ولم تكن لي

علاقة بالحمير قبل هذا الرفيق الوديع، ولكن مظهره ونظرته أوحت إلي الثقة به، والاطمئنان إليه.

وركبنا وكنا خليطاً لا تؤلف بينه الإنسانية الصحية، وكانت حميرنا مثلنا في هذا فكان بينها الحمار الحضري، والبدوي، والأنيق والبوهيمي...

ولم يكن لحسن الحظ حماري عصبياً فتم التفاهم بسهولة بيننا ولم يكن مقصراً في ما يجب عليه –كحمار كامل– فكان يسرع في الأرض السهلة ويتئد في المضايق والوعور، ووجدت بعد لحظات أن في وسعي الاقتناع بوجاهة تصرفاته علاوة على أنها في مصلحتي.. فاعتمدت عليه وأوليته ثقتي ولففت مقوده على عنقه.

وبالرغم من أن صحبي كانوا يؤكدون أن الطريق إلى اليمين معولين على خبرة حميرهم أو خبرتهم فقد وضح أخيراً أنه أكمل خبرة –على حداثة سنه من الجميع– فقد وفر علينا ربع المسافة تقريباً."

وحينما صاح أحد الرفاق: [قد وصلنا] أبى حماري الوقوف ولم يجد الصحب –أي الحمير– بداً من إتباعه على أن أشرف الركب على صخور يتفجر منها الماء وتغطيها الأعشاب. فترجلنا وانطلقت الحمير ترعى وتشرب.

ويختتم مقاله عن الحمار بقوله: "واستطاع حماري أن يملأني إعجاباً به، حتى اللحظات الأخيرة وفارقته بعد أن اعتنقنا طويلاً على أمل اللقاء، وما أزال أحس في نفسي حنيناً وشوقاً ينزعان بي إليه نزوعاً ملحاً."

وبعد فهذه ذكرى صحبتنا الهادئة، أبعثها كتحية إلى ذلك الرفيق الطيب."

أوجه الشبه بين حمزة شحاتة وحماره:

والفنان –في كثير من الأحيان– لا يملك إلا أن يعكس نفسه ومزاجه وإحساسه على فنه. سواء كان ذلك عن وعي أو عن غير وعي. والذين أتيح لهم أن يخالطوا حمزة شحاتة –عن كثب– خليق بهم أن يلاحظوا تلك المشابهة بين شخصيته وشخصية حماره.

كان حماره –أو جحشه الصغير– الذي لا يزيد أكثر من سبعين كيلو –في خرجته مع الركب يتجه نحو اليسار على حين تتجه الحمير جميعها ناحية اليمين، فهو في هذا الحال يميل إلى التفرد والانطواء ومخالفة التيار العام تماماً مثل صاحبه حينما يتقوقع في حدود ذاته وينطوي على نفسه وكتبه ويتأمل في الكون والحياة ويشرح المجتمع الذي يعيش فيه ويعري الإنسانية من أرديتها الزائفة حتى تغدو، بشرية سافلة خير منها ألف مرة تلك الحيوانية التي لا يحكمها إلا قانون الغاب.

وما أعجب منظره –وهو في لبسه المتفضل لا يرتدي إلا قميصاً رقيقاً وإزاراً يكشف عن ركبتيه، وعيناه اللتان أعياهما الجهد تطلان على هذا العالم من خلال منظار سميك كأنه المهاتما غاندي يتفكر في وسائله السلبية وأسلحته السلمية التي يطرد بها الانجليز من بلاده، مع فرق بسيط هو أن غاندي كان رقيق الجسم وصاحبنا عملاق ضخم.. أو كأنه –وهو يداعب مبسم شيشته ويطرب لكركرتها– فقير هندي يداعب ثعبانه ليرقص على نغمات مزماره.

إنه في مثل هذه الخلوات الانطوائية يفكر، ولكن فيم يفكر؟؟ إنه يفكر في مشــكلة جديدة يحل بها مشــاكله العديدة في هذه الحياة. إنه رجل يســعى وراء المشاكل والمشاكل بدورها تسعى خلفه وتطارده.

حماره، الذي ينعزل عن الجميع ويميل إلى الاســـتقلال ويكون وحده حزباً للأقلية وهو مثل حماره يعتزل الناس ويطيب له الاســـتقلال، ويكون وحده أو هو وحماره حزباً يصارع التيار.

وحمزة شحاتة ساخر مغرم بجمال الطبيعة ومرائيها الجميلة، وكم تمنى لو قضى حياته في كوخ صــغير على شــاطئ نهر يســتمتع بالماء والهواء والشــمس والقمر والنجوم والأزهار والأشــجار وموســيقى البلابل ونوح الحمائم ولوحات الطبيعة البارعة التي رسمتها يد الله.. وحماره كذلك شـــاعر مفتون يحب الطبيعة. يقول عنه: "وكان حماري –دون الجميع– متنبهاً لدقائق واديه الفاتن... وكانت تدور في رأســـه بالتأكيد خواطر، وتتجلى في نظراته النشـــوى معان ليحلها من خير الشعر وأروعه، لو كان إلى تصويرهما من سبيل، وصاح أحد الرفاق: قد وصلنا. وترجل عن حماره، ولكن حماري أبى الوقوف وأخذ يوغل بين الجبال، فأدركت أنه يعد لي مفاجأة سارة، ولم يجد الصحب –أي الحمير– بداً من إتباعهن وكان أن اجتزنا مضــايق صــخرية انفرجت بعد دقائق عن صــخور يتفجر منها الماء وتغطيها الأعشاب ويعطر جوها شذى الشيح والحبق. وتضفي عليها السكينة أردية من الســـحر والفتنة والجمال.. وثملنا وانطلقت الحمير ترعى وتشـــرب، وتتوثب وتضطجع وتنهق نهيقاً موسيقياً لا اعتراض عليه.

إنسانيته:

وتبدو مشاعره الإنسانية العالية في مشاركته الوجدانية للحيوانات الأنيسة جميعاً وتجاوبه الروحي مع الحمار بصفة خاصة.. حتى لقد فكر حينما أحس بإعياء حماره الصغير أن يحمله على ظهره. يقول: ولاح لي في النهاية أني على استعداد لحمله لو أعياه الجهد، ولا أحسب أن ذلك يضيرني، فهو خفيف الوزن والروح. ويستحيل أن يتعدى وزنه سبعين كيلو.

ولا أكتم القارئ أني نشأت مفرط الحنان على الحيوانات أو على ما يشاطر الإنسان معيشته منها. وقد كنت أرى أن عشرتها الطويلة لنا يجب أن تنشئ بيننا من القرابة [المعقولة]. ولا أنسى طبعاً أن منها ما لا يستحق هذا العطف، كالبغل مثلاً فإن ماضيه من الغلظة الواضحة والميول المتشبعة بالشر والخشونة، ودلائل الجمود الشائعة في قسماته النافرة –خليق بأن يبقى هكذا، محدود العلاقة بالإنسان...

والحيوانات عندي جزء من الطبيعة التي نرتاح إليها ونحبها، ونربي كثيراً من ملكاتنا الفكرية ومشاعرنا النفسية على حسابها وهي [الحيوانات] تعد أكثر جوداً علينا من الطبيعة، وآمن مغبة، ونحن بها أكثر امتزاجاً.. ومن ينكر أن الحيوان جندي مجهول في تاريخ حضارتنا؟!.. ولو ذهبنا نزن الحقائق وزناً فلسفياً مجرداً لرأينا أن كل حمار وكل فرس، وكل جمل، وكل كلب، قد أسدي إلى الإنسانية يداً بيضاء يجب أن لا يقل تقديرها وتقديسها عن تقدير الآدميين في هذا السبيل، ألم تكن رفيقة الإنسان وعونه في سلمه وحربه، وهدمه وبنائه،

وحلـه وترحـالـه؟ ألم يكن منهـا حـارســـه اليقظ ومركبـه الأمين، وأنيســـه المخلص؟؟؟."...

أسلوبه التعبيري:

أما أسـلوبه التعبيري في هذه المقالة فيمضـي على نسـق عربي محكم لا ركاكة فيه ولا عجمة وربما لحنا فيه أثراً من آثار ابن المقفع أو الجاحظ أو غيرهما من كتّاب العربية، إلا أن شـــخصـــيته الفنية واضـــحة.. والذين قرأوا كثيراً لحمزة شـحاتة يشـعرون أن هذه هي طريقته في التعبير يتحلزن في بعض الأحيان ويكثر من الجمل المعترضة ويختار اللفظة لدقتها في تأدية المعنى أكثر مما يختارها لجرسها وموسيقاها، ورصيده من المفردات اللغوية رصيد ضـخم –وهذه السـمة –كما يرى النفسـانيون– دليل على الألمحية والذكاء.. ولعل قلة من الكتاب اليوم هم الذين يحرصون على مثل هذا التعبير "ويجهد لتأصيله."

ومن الواضـح أن هذه المقالة ليسـت مقالة صـحفية تتوخى سـهولة التعبير وتتجنب التعمق في التحليل وإنما هي مقالة أدبية نلحظ فيها العبارة المحبوكة وعمق الفكرة والاستناد إلى الخيال.

ففي تحليله الثاقب لأخلاق الحمار والإنســـان، يبدو طول التأمل ودقة الملاحظة كما رأينا في الفقرات الســابقة التي نقلناها، وفي تصــوره نفســه حماراً يرعى ويمرح في مفاتن الطبيعة الجميلة لا يـد لمخلوق عليـه إلا يـد الله، يبـدو التجاؤه إلى الخيال وفي ذلك يقول: "ســبحت في هذه الخواطر المتدفقة وأمثالها حتى تصـورتني حماراً أرعى وأعيش في هذا الجانب من الأرض، عيشـاً خفيضـاً، تطرد فيه أســباب الأمن والدعة والهدوء وتتلاشـــى عنده متاعب الفكر وآلام

الحياة ودواعي السأم والكلام، وتضيق فيه مطالب العيش وغاياته حتى تنحصر في مرعى خصب تتعهده السماء والشمس، ثم لا تكون فيه لأحد بعد الله منة أو يد، وعشت في هذا الكون لحظة لا يعدلها عمر مديد مليء بالسعادة والهناء."

وهو في خواطره عن الحمار ونقده للإنسان لم يسلك سبيل الوعظ والإرشاد، وإنما سلك سبيل التصوير الهادئ حيناً والثائر حيناً آخر، واللمحات الذكية التي كان الكاتب لا يحفل بها ومع ذلك نحس فيها بالعمق النفاذ، كما كان يغلف نقداته البارعة بجو من الفكاهة والسخرية وخفة الظل.

خصائص وسمات

وأجدر بنا ونحن بصدد دراسة الأديب حمزة شحاتة أن نلقي بصيصاً من الضوء على حياته وأدبه لنستبين طرفاً من خصائصه وسماته العامة.

مفكر.. سابقاً

حينما التقى الشاعر التونسي "الطيب الشريف" بأديبنا الجهير "حمزة شحاتة" ولم يكن يعرفه من قبل تطوع أحد الأصدقاء بالتعريف فقال:

"الأستاذ حمزة شحاتة"... من كبار المفكرين..

وقاطعه حمزة على الفور بقوله: سابقاً...

وضحكنا.. وضحك السيد الطيب ولكنه قال مستنكراً..

سابقاً؟! لقد تعودنا أن نقول أن فلاناً رئيس الوزراء أو الوزير سابقاً ولكن كيف يكون المفكر مفكراً سابقاً؟ هل تركت الفكر يا أخي؟ فأجابه حمزة: لا... الفكر هو الذي تركني!!

وحمزة أديب معروف باللسن والقدرة على الحجاج والجدل الطويل، حتى ليظل في بعض الأحيان يناقش عشرين ساعة متصلة دون سأم أو كلال، ومع ذلك يعتبر نفسه الأديب الصامت، ويتمنى أن يجد البشر وسيلة للتفاهم غير الكلام..

ويتنبأ بأن إنسان المستقبل سيستغني عن اللغة وسيتفاهم الناس بانتقال "موجات الأفكار" وكلما أمعن الناقد في دراسة حمزة ألفى نفسه إزاء شخصية يتعانق في طواياها الإنسان بالفنان.. وهو يمارس الوظيفة ويحل مشاكل الحياة بروح الفنان... يقول لصاحب العمل [إنني سأتخلى عن العمل بعد أسبوع فلتبعث مديراً جديداً يتسلم مني الإدارة في هذه الفترة] وإذا تباطأ الرد كتب له مرة أخرى: [أمامك يومان للتسلم لأني سأركب الطائرة إلى لبنان أو إلى مصر]... ويسافر فعلاً سواء تسلم منه العمل أم لا..

وحينما كان محاسباً للبعثات السعودية بمصر كان يقضي وقت الدوام وهو يناقش طلاب الجامعة في شؤون الحياة والفكر والأدب فيستهويهم حديثه ويشعرون أنهم إزاء مفكر غير عادي.. ويظل معهم على هذا النحو إلى أن يحين وقت انصراف الموظفين إلى دورهم فيبدأ في عمله الرسمي... ويحبس نفسه وموظفيه المساكين إلى الليل.

والمزاج الفني يتحكم في مجرى حياته ومعاملاته مع الناس، فبينما تراه يدقق في القرش ويحاسب على الهللة حتى يقبضها تراه في موقف آخر يترك ألوف الجنيهات تذهب هدراً، لأن الذي استدان منه اتخذ في النصب عليه وسيلة فنية استهوته ووافقت مزاجه الفني...

وقد حكى لي مرة قصة التفاؤل والتشاؤم في الدَّين [بفتح الدال] قال بطل القصة لصديقه:

–إنني أفضل الاستدانة من الأستاذ حمزة على غيره من الناس..

فسأله الصديق:

–لماذا؟... فأجابه:

–لأنه متشائم وغيره من الناس متفائل... قال له:

–أرجو إيضاحاً أكثر... فقال له:

" –إن المتفائل يظل يلح على غريمه ويمد يده ولا ييأس أبداً حتى يتقاضى دينه، أما الأستاذ حمزة فيدين الشخص ويعرف مقدماً 99٪ أنه لا يرد دينه.. فهو إذن متشائم وأنا أموت في المتشائم."

وحمزة شحاتة من نتاجه الأدبي يقف على نقطة الالتقاء أو خط التماس بين الفلسفة والأدب. وهو في هذه السمة يشبه أبا العلاء المعري الذي يعجب أديبنا به وبآثاره أيما إعجاب.

وإذا أردنا أن نطبق عملية تصنيف علم الطبائع للأمزجة، ألفيناه يمثل الطبع العاطفي على حين يمثل زميله محمد حسن عواد الطبع الغضبي.

وأصحاب الطبع العاطفي –بفطرتهم– يتأرجحون بين الانطوائية والانبساطية وهذه الميزة تبدو واضحة في حمزة شحاتة سواء في حياته أو في شعره. فقد يهرب من المجتمع ويتقوقع داخل داره أو غرفته متأملاً أو منغمساً في قراءات طويلة عميقة متنوعة يقرأ كل شيء، ولا يكاد يظهر للناس، حتى إذا ظننا أو اعتقدنا أنه قد آثر الوحدة والانعزال، ألفيناه فجأة يغشى المجالس والمجتمعات

ويلقى أصدقاءه ومعارفه وينغمس في دنيا الحياة والأحياء والبيع والشراء، ويمثل الروح الإنبســاطية بأجلى معانيها، ولكنه لا يلبث أن ينصــرف تدريجياً إلى حياة الانطواء والانفراد.

الجزء الأول حنفشعيات < هول الليل

حنفشعي[1]

هذه الكلمة، منحوتة نحتاً ديمقراطياً من كلمتي حنفي وشـــافعي، وتقال لمن يخلط بين المتناقضـات، وهي ليسـت من وضـعنا ولكنها مما أجراه الارتجال على لســان امرأة من بنات حواء، ولهذا الارتجال حكاية شـــهيرة ما نظن أحداً من القراء يجهلها.

وكاتب هذه الكلمات ليس حنفشـــعياً قحاً، ولكنه يختار الخلط في ما يكتبه ولا يلتزم ما يلتزمه خاصـة الأدباء وعامتهم من قصـر القول على الموضـوعات الدسمة والدراسات الفنية فهو لذلك حنفشعي.

وسـيرى القراء في هذه الحنفشـعيات نوعاً طريفاً من الأدب الديمقراطي الذي دعا إليه الأستاذ أحمد قنديل، حتى جف قلمه...

ولا شـك أنها تضـحية سـيحمدها لنا الناس –دون الأدباء– وسـيرتاحون إلى نتائجها لأن لغة الأدب في بلادنا، لغة اســبرانتو أخرى لا يفهمها إلا القليل، وهذا القليل يعيش في الدنيا من الألفاظ والأفكار، لا يصــلها ســبب بدنيانا العامة ولا بدنيا غيرنا من الزاحفين على قسمنا من الكرة الأرضية.. وهذا نقص أحسه الناس وتحدثوا عنه حتى سئموه.

([1]) - صوت الحجاز -العدد (225) 1355/7/6هـ-1936/9/20م .

فليسخر الأدباء من هذه الحنفشعيات وليقولوا عن أسلوبها إن المتانة تنقصه وإن ألفاظها لا تترابط فنياً أو موسيقياً... وليصبوا عليها كل ما تعلموه من العقاد والمازني وطه حسين، ومن كل أديب في مصر وسوريا، والمهجر.

ليسخروا ما شاؤوا فإنا لا نختار أن نكذب الواقع. ولا نختار المشي على أيدينا ورؤوسنا فإنما خلق الله الأقدام وحدها للمشي.

وبعد فإنا لا نقلد أحداً، ولن نسرق وحسب القارئ منا هذه الأمانة في الوقت الذي عمّت فيه فوضى التقليد وأصبحت كثرة الأدباء لصوصاً، وغدا الأدب "لصوصية" لا يطلب للبراعة فيها أكثر من جلادة الوجه، وخفة اليد، والصبر على المكابرة.

التوقيع

هول الليل

فضائل مجفوة[2]

من الواجب أن تتغير نظرة الناس إلى كثير من الفضـائل. فإن العفة لم تعد في موازين الحياة العامة إلا ضعفاً، والأنفة حماقة وأفنا في العقل!!

ومن طبيعة هذا الاعتبار أن يصـرف الرغبة عن تشـجيع الفضـائل وإكبارها فتضعف وتتلاشى، ويتسع المجال لأضدادها فتقوى وتنمو.

وليقل لنا من يمارى في هذه الحقيقة ما هي نظرة الناس إلى الحياء الذي كان معدوداً من أكثر الفضــائل تمثيلاً لكمال النفس؟.. أليس هو اليوم معدوداً من دلائل الضعف والفتور وانحلال الحيوية؟

ولا ننكر أنه معدود فضـله في نفوس الناس، وعلى ألسـنتهم، كما هو معدود هكـذا في بطون الكتب، ولكنه ليس كذلك في زحمة الحياة، ومقاييس الواقع الملموس.

وقد تجسـد رجلاً يستحي ويأنف أن يريق ماء وجهه في التسـكع على أبواب العظماء واســـتجدائهم وإرهاقهم بمطالبة، عزوفاً عن الضــــعف فيتنكرون له ويحاربونه ويعملون على محوه كأنما يعدون انصــــرافه عن غشـــيان مجالســــهم واحتمال انكماشــهم عنه، تعالياً يســتحق عليه العقاب، وهو لو لاقاهم لذاق الويل من الغطرســة والخيلاء ولما كان في اعتبارهم أكثر من فرد لا يأبهون له في

(2) - صوت الحجاز -العدد (226) 1355/7/13هـ-1936/9/29م .

جد أو هزل، ولما لاقوه إلا بما تنفجر له النفس الأبية، وهم إذا أباحوه عطفهم أو بشاشتهم وإقبالهم، فإنما يفعلون بعد أن يكون قد أبلى كوجهه، وأحنى رأسه وقدميه في مســـابقة خدمتهم إلى أداء أحقر واجباتهم وأدقها تمثيلاً للمذلة والهوان.

وربما مات الأنوف جوعاً، والناس خبيرون بحاله، فلا يدفعهم إلى تفقده والعطف عليه بدافع من دوافع الإنسانية والرحمة وكبار الفضائل ولا يكون ذنبه بعد ذلك إلا أنه ترفع عن السؤال.

فما هي هذه الفضـــائل المجفوة المنكورة؟ ولماذا يلقنها الناس أبناءهم إذا كان نصيب المتحلي بها الإنكار والاحتواء؟

والجرأة الأدبية، وعلو النفس من جملة الفضائل التي تربي الأمم أبناءها عليها وتأخذهم بها أخذاً لا هوادة فيه، وتوسع المجال لاهتبال نتائجها. فما هو المجال الذي يهيئه فهمنا وتقديرنا لهذه الفضائل؟ إنه ليس إلا مجال السخرية والامتهان والكبح في ما نعرف..

ولو أن مفكراً حراً زين للناس أن يربوا أبناءهم على الوقاحة في مواضع الحياء وعلى الضراعة والاستخذاء في مواقف الإباء والكرامة، وعلى الكذب والرياء والملق والخداع، لقال الناس إنه إباحي لا يقيم للفضـــائل وزناً، جاهلين أنه إنما يبني جيلاً ناجحاً بهذا المبدأ ويقضي على آخر ضعيف متعثر.

وها نحن نرى اليوم وسائل النجاح محصورة في مجموعة من الرذائل والصغائر كان الواجب أن نتنكر لها ونحاربها بكل ما أوتينا من قوة الإيمان والخلق، كما يفعل غيرنا من بني آدم.

وبعد، فما يدفعنا إلى إجمال هذه الفكرة عداؤنا للفضيلة، ولكن رثاءنا لها، وإنا لمن أول المؤمنين بأن الفضائل التي مشت الإنسانية على ضوء هديها، وما تزال تستمد منها حياتها، لخليقة بألا تحارب بتشجيع أضدادها.

حمار[3]

(1)

في الحمير شـيء جدير بالاحترام والدراسـة. والعناية بالحمار ليسـت فضـولاً فإنه رفيق الإنسـان منذ كانا، ومسـاعده ومطيته، على قلة ما تسـتوجب هذه المرافقة من التكاليف والقيود...

والحمار من أنشـط الدواب، وأقدرها على احتمال المكاره، وما نشـك أنه كان من أكثر الحيوانات طيبة، وأن ما دخل على أخلاقه وغرائزه من الشـذوذ المنكور إنما جاءه من قسوة الإنسان وعنته... وما نظن أن حيواناً آخر ينافسه صـفاته الطيبة غير الجمل.. وليس هذا وحده ما يجعله أجدر باهتمامنا... فإن في الحمار جاذبية لا يفسرها تناسب جسمه، ولطف حجمه وفراهته. وما نظن أن مردها إلى شيء خفي وراء لحمه وجلده وشياته الظاهرة..

وفيه أناقة ووجاهة يفوقان كثيراً من الآدميين. وله ابتسـامة محجوبة يدركها ويدرك موضع السحر والفتنة فيها كل من يعنيه من أمر الحمير ما عنانا..

والحمار بعد، يؤدي واجباً في حياته لا يؤدي مثله إلا قليل من الحيوان ومن بني آدم. وهو جم اللطف والتواضع، وفيه إنكار عميق للذات، ووفاء يجب أن يكون مضـرب الأمثال.. ونحسـب أن الله خلقه على أن يكون خير الحيوانات

---

(3) - صوت الحجاز -العدد (227) 1355/7/21هـ-1936/10/6م .

وأكثرها شبهاً بالإنسان الكامل، من الناحية الخلقية والنفسية، وإن باعد بينهما في الخلقة والإدراك والمقدرة على استخدام الفكر والتصرف بالإرادة، ونستبعد أن تقترن بهذه الفضائل الممتازة، رذائل تتنافى في جوهرها، وسماتها الأساسية، مع تلك الفضائل الثابتة...

والعناد، –على أنه رذيلة أو شذوذ مكروه– إنما هو صفة من صفاتنا، وليس في فطرة الحمار، ولا في مطالب عيشه ما يقتضي أن يكون معانداً... فلم يكن مقدراً للحمير في ما نرجح، أن تحمل على ما تأباه فطرتها، وتنكره طبيعتها، ولا أن تحمل من حماقة غير أبناء جنسها وشذوذ تصرفاتهم ما يثير فيها روح العناد ويقويها حتى تنقلب طبيعة ثابتة، أو صفة لاصقة.!!

وقد أساء الإنسان فهم الحمار، وركبه بالسخر والدعاية حتى أصبحت كلمة الحمار منذ أجيال سبة الآدميين، وموضع تنادرهم، والحمار في هذا أخسر الأحياء صفقة مع الإنسان، وأبينها ظلامة، وأوكسها نصيباً. ولا نشك أن صدفة من الصدف السيئة قضت على سمعته هذا القضاء الظالم.

ولعل حماراً من حمير التاريخ القديم! تمكنت منه الفلسفة، أو تمكن منه الضعف والخرف، ونشأ عن هذا إخلاله بواجباته المفروضة عليه إخلالاً يدل على الغباء والذهول حتى اشتهر أمره، وتنادر الناس ببلادته وغبائه، فكانت عثرة ينبذ بها كل حمار بعده استحثاثاً له، وحفزاً لنشاطه، أو كسر السورة شرفه وعرامه.. ثم.. درج التاريخ فإذا هو الحكم الذي لا يقبل النقض...

ولسنا في حاجة إلى أن نسوق الأدلة على ظلم الإنسان وتعديه، ففي تاريخ الإنسانية نفسها شواهد حمراء.. ناطقة بذلك.. والحمار ضحية من ضحايا هذا الظلم..

...وفي الحمار خفة، وفي حركاته حلاوة، ونظراته لا تخلو من معان تفيض منها العذوبة. وفيه ديمقراطية تصرفه عن الخيلاء، فهو أبداً مقضي على أخلاقه وعاداته وميوله التي يندر ألا تكون هادئة جداً، في سبيل إرضاء صاحبه أو راكبه. فيكون مؤدباً على أن يسير سيراً ليناً موزوناً، فيأبى ممتطيه إلا أن ينهب الأرض ركضاً كالخيول في الطراد، فلا يجد في ذلك غضاضة، على ما فيه من إجهاد له ومصادرة لإرادته، وإفساد لآدابه وتقاليده...

ويركبه الصبيان أو أشباههم من ذوي اللحى والشوارب، ويعملون فيه أيديهم نخساً وأقدامهم رفساً، وعصيهم ضرباً، وأصواتهم المنكرة زجراً، ويأخذونه بين ذلك كله... بقيادة مضطربة مجنونة لا تتخذ اتجاهاً ثابتاً في السير، مائلين به إلى اليمين تارة، وإلى اليسار تارة.. وقد يحلو لأحدهم أن يترنح عليه، أو يكون جهله بفن امتطاء الحمير، يلزمه هذا الترنح فما يكاد يمسك نفسه فوقه، ويعاني الحمار المنكوب من هذا، شر ما يعانيه حمار من راكبه.. ثم لا يكون منه إلا احتمال هذا الأذى، والمسايرة فيه، فإذا مس السوط جلده، وجن جنونه، فطفر أو رفس، أو قام على رجليه الأماميتين وألقى راكبه، قيل

حمار حرون شـرير، وما به شـر ولا حران ولكنه فسـاد ذوق الإنسـان وتحجر عواطفه.

وصوت الحمار من أنكر الأصوات ما ننفي هذا. أو هو أنكرها، إن كنا نعتبر النعومة والاعتدال، كل مقومات الصـوت الحسـن، أما إن جرينا في نقد الأصـوات على النهج العصـري الجديد الذي لا يدين إلا للمقدرة الفنية في التأليف والتنويع، وأحكام النسـب وتحريرها... والذي ينكر النعومة ويعدها أنوثة لا تليق بفن إنسـاني يقود الأفكار والعواطف والمشـاعر –كالغناء، كان الحمار معدوداً في طليعة الموسيقيين الموهوبين.

وقد يخطر لحمار أن يرفع عقيرته مغنياً ليطرب أمثاله من الحمير.. فيضـحك الناس ويمطرونه وابلاً من الشتائم والازدراء وفي هذا حجر لا شك فيه، على.. الحرية.. الشـخصـية.. كان من الواجب أن يتنزه عنه الإنسـان تسـامياً بذوقه. وماذا يبقى للحمار من الحقوق إن حرم الحرية في استعمال هذا الحق؟؟...

والناس؟ أليس فيهم من إذا قيس صوت الحمار بصوته، كان أخسر القرينين وأخلاهما يداً من أدلة الفوز؟؟.

والحمار أرق ذوقاً في هذا، فما يفاجئون الناس [أعني الحمير] بالغناء إلا عندما يكون المجال مهيئاً لمثل هذه المفاجأة... ولكن الإنسـان يدندن حيثما اتفق له أن يفعل. ويكفي أن تتهيأ له دواع من نفسـه، أو من خياله المريض،

حتى يندفع في ذلك الهواء المغثي، غير عابئ بما يصـــبه على رؤوس الناس من هول وألم...

حمار[4]

(3)

والحمار من أوســـع الحيوانات حيلة.. يؤيد هذا أن حماراً ألقى صـــاحبه في مســتنقع متظاهراً بأنه عثر. وآخر صــدم راكبه بشــجرة شــوك أدمت أطرافه ومزقت ملابسه.

وكنت المحسـود الوحيد بين الجماعة على حمارين ولا أشـك أنه كان محسـوداً من رفاقه أيضـاً على هذا [الجنتلمان] الذي يحمله، وقد أتاحت هذه الفرصـة لحماري أن يظهر بمظهر الدلال.

ولاح لي في النهاية أني على استعداد لحمله لو أعياه الجهد، وما أحسـب أن ذلك يضيرني، فهو خفيف الوزن والروح ويستحيل أن يتعدى وزنه سبعين كيلو.

ولا أدري كيف كانت تنتقل خواطري وخوالج فكري إلى رأســه. فضـــاعف جهده في السـير، ونهق نهقة أدركت بسـهولة أنها تعبر عن احتجاجه، وكان هذا تأكيداً منه بأنه لن يضطرني لتلك التضحية.

وأخذتنا روعة الطبيعة بين الجبال وســفوحها المكســوة بالعشــب والحلفاء وجداول المياه المنســابة.. وصــاح أحد الرفاق قد وصــلنا مترجلاً عن حماره.

([4]) - صوت الحجاز -العدد (229) 1355/8/4هـ-1936/10/20م

ولكن حماري أبى الوقوف، وأخذ يوغل بين الجبال فأدركت أنه يعد لي مفاجأة سارة. ولم يجد الصحب بداً من اتباعي، أو على الأصح اتباع حماري الحكيم..

وكان أن اجتزنا مضايق صخرية انفرجت بعد دقائق عن صخور ينفجر منها الماء وتغطيها الأعشاب، ويعطر جوها شذى الشيح والحبق، وتضفي عليها السكينة أردية من السحر والفتنة والجمال.

وثملنا مرة، فانطلقت الحمير ترعى، وتشرب، وتتوثب، وتضطجع، وتنهق نهيقاً موسيقياً لا اعتراض عليه.. وقد لاحظت أن في وسع الحمار [أي حمار] أن يكون نهيقه رفيقاً إذا شاء..

وكانت الحمير البدوية منصرفة عن التأمل في هذا الجمال الذي يغمر الكون كوننا الصغير. فكان هذا دليلاً على أن الألفة الطويلة لها لما في الطبيعة، توجد في النفس نوعاً من التخمة والزهادة.

وكان حماري [دون الجميع] متنبهاً لدقائق واديه الفاتن.. وكانت تدور في رأسه خواطر وتتجلى في نظراته النشوى معان لعلها من خير الشعر وأروعه، لو كان إلى تصويرها من سبيل!

وذهبت أترسم خطواته الموزونة، يظهر أنه ارتاح ارتياحاً عميقاً إلى هذا، فسار إلى جانبي، وألصق رأسه بصدري، أو بما وسعه أن يلمس منه، وشعرت بأن نفسينا متحدتان، ولم يخطر لي أن في هذا أية غضاضة، فوشيجة الرحم بين الأحياء وثيقة، وإن أنكرها عرف البشر القاسي، ورب حمار كهذا لا تجد بين

كل ألف من الناس مثله رقة جانب، وخفة روح، وسلامة نفس، وصدق سريرة، ووضـــح عاطفة، وإن جيلاً من الحمير يخلقه الله على غرار هذا الحمار، لجدير بأن يفوق ألف مرة جيلاً من الأناســـي، حرى بالأذى ومطبوعاً على الشـــر، والتزوير والنفاق والغدر.

وسبحت في هذه الخواطر المتدفقة وأمثالها حتى تصورتني حماراً أرعى وأعيش في هذا الجانب من الأرض، عيشــاً خفيضــاً تطرد فيه أســباب الأمن والدعة والهدوء والسلوى، وتتلاشى عنده متاعب الفكر وآلام الحياة، ودواعي السأم والكلال. وتضـيق فيه مطالب العيش وغاياته حتى تنحصـر في مرعى خصـب تتعهده السماء والشمس ثم لا تكون فيه لأحد بعد الله منة أو يد.

وعشــت في هذا الكون لحظة لا يعد لها عمر مديد مليء بالسـعادة والهناء.. حتى أفقت على صـرخة أحد الرفاق عضـه حماره عضـة أدمت ذراعه. ومضـى يجري والحمار يتعقبه ثائراً ملوحاً بذيله. وألقيت نفســـي مســـوقاً إلى التدخل بينهما لحل المشــكلة.. وأدرك الحمار غرضـــي فوقف بأدب فربت على رأســه وجبهته. وكان هذا بمثابة اعتذار عن غلطة الرفيق.. فتردد في صـــدره صـــوت متقطع، خلت أنه لغة في الاعتراف بالجميل والتقدير.

وهكذا استطعت أن أسيطر على الموقف، وأن أتلافى فتنة كانت على وشك الشبوب بين الفريقين المتحمسين. وأستطيع أن أراهن أن الحمير الأخرى كانت

على وشـــك الانفجار في اللحظة التي يبدو فيها أن أحداً منا ينتصـــر للرفيق [المعضوض] وهذا دليل على احترام الحمير للمبارزة الشريفة بين خصمين.

والحمار طيب القلب، يســاعده على أن يكون هكذا دائماً ضــعف ذاكرته فهو لا يسـتطيع أن يحتفظ بالحوادث المؤلمة طويلاً، فسـرعان ما تناسـى الجميع أحقادهم، وعادوا إلى الصفاء مع أنه لم يكن هناك اندماج روحي ملحوظ.

ونشــر الليل أرديته على ذلك الوادي فزاده جلالاً، وكان كل شــيء صـامتاً كأنما يصغي إلى همس الطبيعة الخفي، ووسوسة الحصا، وأنفاس النسيم فودعنا هذه الحياة النابضة قافلين وكنت أتمثل في نظرات حماري معنى بيت المتنبي:

أبوكم آدم، سن المعاصي

وعلمكم مفارقة الجنان

واستطاع حماري أن يملأ نفسي إعجاباً به، حتى اللحظات الأخيرة... وفارقته بعد أن اعتنقنا طويلاً على أمل اللقاء. وما أزال أحس في نفســي حنيناً وشــوقاً ينزعان بي إليه نزوعاً ملحاً.

وبعد، فهذه ذكرى صحبتنا الهادئة أبعثها كتحية إلى ذلك الرفيق الطيب.

التوقيع

هول الليل

أستاذ [5]

لصديقنا الشاعر قنديل [6]لسان ما يعجزه أن يحك به قفاه لو شاء، وقد ننفرد نحن من دون غيرنا بفهم هذا الجانب منه. وبذلك كان من أولى الواجبات بمراعاتنا به تحاشي الاصطدام به، اصطداماً أدبياً، وتجنب إثارته.

ولكن الهدوء أحياناً، مملول يجتوى. وما قيمة حياة لا تكون الأيام فيها مترجحة بين جزر ومد عنيفين؟ بل ما قيمة حياة تشرق فيها الشمس وتغرب على أنفاس تتردد ونظرات تسبح في آفاق هامدة لا حس فيها ولا حراك، ولا تختلف عن نظرات الحالم المستغرق في شيء؟؟.. وقد ألزمتنا الحياة أن يعيش في بلاد مهمومة لا يدل على حياتها إلا هذا الغطيط الموزون، فلا أقل من أن نتبادل من شؤوننا الخاصة ما يثير في النفس شعوراً خافتاً بالحياة ونبضها.. إن لم يكن هناك أمل أو رجاء.

وقنديل.. وليس هذا اسمه الكامل كما يعلم القراء –شاعر وكاتب من الطراز الأول بين شعرائنا وكتابنا، وليس هذا ما يعنينا منه– وهو ليس بالمغمور، ولكن له في إنكار نفسه فلسفة لو قدر الله لها الظهور، وأتاح لها الفهم والوضوح لخلا

([5]) - صوت الحجاز -العدد (230)، 1355/8/11هـ-1936/10/27م .

([6]) - أحمد قنديل من شعراء النهضة في السعودية، يكتب الشعر إلى جانب اللغة العربية الفصحى بالعامية ويمتاز بروحه المرحة في شعره العامي.. وشرفت "الاثنينية" بطباعة أعماله الكاملة في ستة أجزاء عام 1427هـ-2007م .

السكون، أو خلت بلادنا على الأقل ثمانية أعشار الرذائل التي يولدها الغرور، وجهل النفس، وتطليق الحياء!

وقنديل كاذب، ممعن في الكذب وما أخاله إلا كذبة تدفعها الحياة في شـــكل آدمي ليسهل تسربها الى النفوس والأذهان. يكذب بعضه على بعضه وظاهره على باطنه. فهو في مجموعه مثال للتنافر.. وكأنه نقيضـــة من نقائض الطبيعة تهجو بها الحياة نفسها، مبالغة في التطرف والمرح.

وليس بين أدبائنا وشـــعرائنا الكثيرين (والحمد لله) من يســـتطيع أن يبلغ في تمثيل "الرجل البلدي الأصـــيل"، بجميع حدوده وصـــفاته، مبلغ قنديل، فهو بلدي قح بقفاه وبوجهه، أو بما يلقاك منهما، وبضحكته وحركاته، وبلدي بهذه النفس القانعة، المستسلمة، وبهذا الصوت الغليظ الذي تتردى منه الألفاظ تتدحرج في مثل البئر العميقة المهجورة، وبلدي باطمئنانه إلى الزي العادي الذي يمثل تخمة الحجاز بعادات الأمم المختلفة ونفاياتها. وجســـمه المتوســـط المتماســـك خير دليل على أن الرجل البلدي يجب أن يكون هكذا محدوداً معقولاً، لا فضول فيه...

وقد تعاشـــره، أو تســـايره، حولاً كاملاً لا يقوم لك في أثنائه دليل أو تلوح شبهة على أنه أديب أو شاعر، ومعظم الذين يرون كثرة تردده بين إدارة الجريدة والمطبعة يظنونه صفافاً، أو خبيراً في الرزم، أو مخبراً متجولاً.

وقد تفاجئه وهو جالس على مكتبه في وضـــع منحرف، وهيئة تدل على أنه يحرســـه، أو كأنه اغتصـــب مقعده اغتصـــاباً في غياب الرئيس، فيبادرك بفزع الخائف المذعور، وروعة المعتذر النادم، وكأنما يضـــرع إليك ألا تؤنبه على هذه الحرية أو العفرتة، التي لا تليق بصـــغار الموظفين في إدارات الصـــحف، وتكون أعظم الناس أو أقلهم شأناً، وهو يعلم هذا حق العلم، فلا يكون لعلمه بشأنك أثراً في ارتياحه إليك بجملته وتفاصيله، ولا من سابقة الخادم إلى تقديم مطالبك والتنبه لها، والتوفر على الترحيب بك والدوران حولك عدة مرات، يســـألك فيها عن حالك، وحال من تعرفهم ويعرفونك وحال البلد.. نازلاً لك عن جزء كبير من دخيلة نفســـه، وهذا الجزء، فليعلم القراء –ثابت لا يتغير وفيه الدلالة على (بلديته) وعلى غرامه بالبلد وأهله. فهو لا يسأل عن السياسة وأحدث ما يغشى حومتها، ولا عن الأدب وحركة النشر والتأليف، ولكن عن اللحم وتطور أسعاره، وعن الفواكه الرخيصة وسهولة تناولها وعن الخضروات ووفرتها ويحمد الله في أثناء هذا السيل الجارف من الكلام، مائة مرة أو ألفاً، أن منَّ على بلده المقدس بهذا الرخاء.

وحظ قنديل متواضـــع مثله، وفيه دليل على أنه مظلوم النشـــاط والكفاءة والذنب في هذا ذنب إمعانه في (بلديته) وذنب استســـلامه واطمئنانه فقد كان حين كان تلميذاً راضياً بقسمته، وراضياً عن حكم أساتذته فيه..

وقد يقضي في الصف الدراسي أعواماً، ما تندمت من فمه كلمة اعتراض أو احتجاج، أو تظلم حتى ترفعه الصدف إلى صف غيره، أو تدحرجه درجة، ولا أحسب أن تلميذاً أبلى من عمره في الدراسة مثلما أبلى قنديل فيها، فقد دفعه أهله إليها قبل أن تنبت أسنانه وغادرها بلحية تسترسل على صدره، تفترش معظمه أو سائره، وقليلون يعرفون أنه كان أستاذاً في صدر حياته، وأنه كان أول من أضاف إلى معاني الأستاذية معنى من الجندية وشقائها وجهودها وتضحيتها.

وقد اكتهلت خبرة قنديل بالدنيا في هذا الدور من حياته، وأفاد منه ما لا تضمنه رحلة طويلة في أطراف الأرض وحواشيها.. ولكنه خسر نشاط الشباب واندفاعه وطموحه وتفززه، ولا غرو فإن حياة المدارس في بلادنا ضرب من ضروب النعاس الثقيل..

ويودع المدرسة أخيراً، وهو في حدود الثلاثين، ولكنه يحمل على عاتقه رأس شيخ هرم..!

ويمتاز قنديل دون أساتذتنا بخفة في الروح لا يطالعك بمثلها إلا (رجل مدردح) وهذه الخفة هي التي تضفي على عقليته المكتهلة شيئاً من الطراوة والمطاوعة. ويخطىء من يتلمس خفة روحه في ظاهره الذي يخيب الأمل.

وفيه ميل إلى الابتكار والتجديد إلا في ما يتصل بمطالب جسده وعيشه فإنه رجعي حتى أطراف أذنيه. فلن تجد فيه ميلاً إلى (البحبحة)، ولا إلى الأناقة التي

يعبر الاندفاع فيها عن طبيعة الشـــباب، ولا ننكر أنه في عهده الجديد حريص على الاتصــال بعصــره في رفق ووقار، وتردد فقد ألغى الطريقة القديمة في حلق رأســه. ولكنه ما زال يحن إلى (الموســى) حنين البدوي إلى الصــحراء.. وأطلق سالفتيه كالفنانين... و...

وما فتئ قنديل بحاجة إلى ثورة إصـــلاحية تتناوله من جميع نواحيه الظاهرة وتقوم بها (مصـــلحة تنظيم) مســـتعدة. وما نرى للبلدية عذراً في إغفال هذا الواجب، فســـوف يجيء يوم يكون فيه الأســـتاذ قنديل جزءاً من تاريخ البلد، وجزءاً من تاريخ نشاطه الأدبي.

وبعد، فإن لقنديل يداً على الحرية الأدبية، وعلى تلوينها. وســنمهد الســبيل لنزولها من الصدور منزلاً رحباً، نظرته العميقة إلى هذه الكلمة إن شاء الله.

التوقيع

هول الليل

عزاء [7]

(1)

انبرى الأستاذ (سهران) لإنصاف الحلواني الشاعر، لما هاله في نقدنا من التحامل "المعيب" و "الخطأ الفني" وقد أجرى دفاعه مجرى العزاء والتوجع، اللذين سرهما الرحمة والشفقة، متظاهراً بالرغبة في إنصافه.

والأستاذ "سهران" رقيق العاطفة مرهف الحس، وقد آلمه أن يتدحرج مجد الحلواني وشعره وحبه في هاوية لا قرار لها. وأشباه الأستاذ في الدنيا كثر ولا اعتراض لنا على ضرورة وجودهم في الحياة لا تفسح للضعيف مجالاً! وأنا لمن أول المعترفين بأن الحياة تنقلب جحيماً لو تجردت القلوب كلها من الرحمة وإنصاف الضعيف والدفاع عن العاجز. ومن خير البر لا شك، أن يتطوع القوي للمناضلة عن ضعف منتهك، أو عجز مستباح.

ولكن هل كانت هذه غاية الأستاذ حقاً من دفاعه؟ أم كانت غايته، أن ينكأ جرحاً في قلب الشاعر أوشك أن يندمل، وأن يبالغ في تصوير فشله، وتعنيفه عليه بهذا الدفاع الذي يعترف فيه بأن الشاعر كان كثير السقطات، وجديراً بالسخر والتهكم؟ ويصور به صاعقة مروعة تنقض على رأسه؟ ويشهد بأنه

---

(7) - صوت الحجاز -العدد (233) 1355/9/3هـ-1936/11/17م

أثخن طعناً؟ ويتركه هكذا جثة هامدة، لا يلوح بدليل واحد على حياة؟؟.. إن من الرحمة لقسوة! وإن من العزاء لرزاء! وإن من التوجع لتنكيلا!

وما تظن حلوانينا الشاعر إلا متبرماً بهذا الإنصاف أضعاف تبرمه بالنقد ونحسب أن لو كانت فيه بقية من نشاط لأخذ بتلابيب الأستاذ واقتاده إلى حيث يثبت له أن سقوط شاعريته في ميزان النقد لا يعني موته وتلاشي حيويته كإنسان.

وماذا يا ترى، يسع الشامتين بالحلواني والهازئين به أن يقولوا فوق مقالة الأستاذ في إنصاف الشاعر؟ وما هي لغة الشمات والرزاية، إن لم تكن هذا التقرير الذي يؤكد الإسراف في التدليل والإسراف في الاعتراف؟؟..

سيقول الحلواني "إن الأستاذ سهران" إنما تقدم بهذا الدفاع عنه ليضاعف عليه الرزاء، والنكاية، وسيقول إن الأستاذ نصيرنا وخصيمه وسيجد من الدلائل والشبهات وما يؤيد هذا القول وما نخال الأستاذ "سهران" بحاجة إلى ما يدله على مواطن الدقة والمنطق في هذه الدعوى.

وبعد، فإن كانت نية الأستاذ معقودة حقاً على إنصاف الشاعر، فقد علم الله والناس، أنه عثر، وضاع عليه أجر المصيب، ولم يبق له على أمله إلا أجر المصيبة، وأجر المجتهد المخطىء، وما على الشاعر وحبيبته إلا أن يسلكاه في عداء من يجوز عليهم الدعاء "نظماً" من الخصوم والأعداء فبماذا ينفي هذا السهام المسمومة؟؟

والآن نميل إلى الأستاذ "سهران" لنوفيه حقه من التقدير والإعجاب بلباقته وابتكاره أسباب الخلاف والتناقض بيننا في حين أننا على تمام الوفاق في شأن الشاعر.

قال إنه "يخالفني في أذكاري على الشاعر فنزعه إلى الأساة والأطباء لئن ذكر الطبيب في مثل هذا الموقف من صميم منازع الحياة ومن ناحية الوهم والخيال الواقع أولاً وثانياً، لأن الحب اليائس كثيراً ما يورث أدواء تتطلب علم الطبيب وفنه وشورته، وقد لا يكون العلاج غير الوصل بين الحبيبين وسواء أقام بهذه المهمة طبيب، أو رجل آخر ليس من أهل هذه المهنة، فإن المعنى يظل مستقيماً، ويبقى له حظه الحسن من الفن والجمال، واستدل بقول إسماعيل صبري:

يا آسي الحي، هل فتشت في كبدي؟

وهل تبينت داءً في زواياها!

ويقول حافظ إبراهيم في رثاء اللغة العربية:

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني

وفيكم –وإن عز الدواء– أُساتي؟

ونحن نحمد الله على أن الأستاذ يحسب الفرق الدقيق بين آسي "الحي" والطبيب، فإن هذا الإحساس خليق بأن يمهد لنا سبيل التعارف والاتفاق."

ونقول للأستاذ، إننا لم ننكر على الشاعر فزعه إلى الأطباء بل قلنا إنه يكذب عليهم، وينسب إليهم ما لا يستقيم حتى في منطق الدجاجلة المشهور عنهم الاشتغال بهذا العبث وما على الأستاذ إلا أن يدلنا على طبيب يزعم لمريض أن الدواء نظرات حبيبه إليه، أو على طبيب يرضى أن يترك عيادته ليصل بين حبيب وحبيبته!!

وبعد فقد تكون حبيبة الشاعر مصابة في عينيها بعارض يمنعها التحديق في وجه الشاعر، أو لعلها زاهدة في مرآه زهادة لا تقضي على احتمال ارتياحها إليه باجتماعات قصيرة أو طويلة ترفه عنه بلواه في حبها فما شأن الطبيب بهذا؟؟ إنه شأن الدجاجلة الذين يزعمون القدرة على تحويل الأفكار بالرقى والتعاويذ. أو شأن الأساة الذين يحملون في حقائبهم عقاقير سحرية ينسبون إليها قيادة القلوب والتصرف بها، ولن يرضى طبيب يحترم فنه أن يكون لهذا نصيب في ضمان مورده على الأرجح إلا إن كان متطرفاً في حب الإنسانية كالأستاذ: فما نحاول الحجر على عواطف الناس!!

ومن حق الأستاذ "سهران" أن يحمد الله معنا، على أن العشاق لا يلتمسون عند الأطباء شفاءهم من شقوة الحب وتباريحه كما يلتمسونه عند العرافين والسحرة، وأساة الحي. وإلا لانقلبت الدنيا مستشفى كبيراً. والناس مرضى حتى.. الأطباء..!

وما الشعر الذي احتج به الأستاذ إلا دليل على أن علاج الحب لا يتصل بفن الطبيب، ولا يشفيه إلا إيحاء المنومين أو طب علماء النفس..

ولهذا يقول صبري لآسي الحي، هل تبينت داء في زوايا كبدي؟ وهذا دليل على خفاء هذا الداء على الطبيب، والبيت كله يشعر بلوعة البائس في مقدرة الطبيب على تبين الداء وشفائه.

والشطر الأول منه يوشك أن يكون تهكماً حزيناً على الآسي، يتعرض لما لا يدخل في فنه ومعرفته!!!

وقد فطن الشعراء، والعشاق، قبل صبري إلى عجز الطب عن إنقاذهم وضيق حيلته بأدوائهم. وليس هذا من الخفاء بحيث نطالب بالدليل عليه.

ولا خلاف في أن آسي الحي الذي يجمع بين كفاءة العراف، وخبرة المجرب غير الطبيب الذي يقوم فنه على الواقع بحدوده المقننة.

وقد كانت مصر على عهد (صبري) مأخوذة بهذا الوهم الذي يزين للعشاق التماس العزاء والأمل والراحة عند هؤلاء الأساة.. إن عز الشفاء، فلا عيب في أن يتأثر به صبري.

ونرى أن أصالة صبري قد حالت بينه وبين المتعلق بمقدرة الآسي، المفروض توفرها في عرف العامة والجهلاء، فلم يقل إن الطبيب شفاه من حبه وتباريحه أو

أنه أشار عليه باتباع أسلوب معين يضمن له الراحة من كربه. بل انصرف بعد هذا البيت إلى بث الأمة وتصويرها، شأن البائس من فائدة هذا العبث.

وبيت حافظ في رثاء اللغة العربية لا نعرف له علاقة بموضوع اجتماع الأستاذ لرأيه، فنحن لم ننكر على الحلواني، استعماله كلمة الأساة، والأطباء ولا ننفي أن الحبيبة في موقف الشاعر تنزل منزل الطبيب من المريض أو الدواء من المرض، ولا ننكر لكلمة الأساة في شعر حافظ، فإنها تستقر منه في موضعها الطبيعي المكين ولكننا ننكر أن يكون في وضع أحد غير الأستاذ سهران أن يدّعي استقامة هذا الدليل للنهوض بحجته.

ونقول للأستاذ إننا لم نفرض على الحلواني أن يستعين بدجالين ومشعوذين على شفائه، ونبرأ إلى الله وحده من هذه التهمة، ونحسب أن لو كان الأستاذ محامياً والشاعر موكله لما أرضاه بأن يسوق للدفاع عنه أمثال هذه الأدلة.

ونعاتب الأستاذ عتاباً رقيقاً على إقلاق المجنون في قبره، والتماس النصرة من شعره الصادق. وقد كان أخلقه أن يطلبها عند من فسدت ملكاتهم وطباعهم من الشعراء الذين يفهمون الحب وما يتصل به على أنه من جملة الألاعيب والأباطيل.

قال المجنون:

يقولون ليلى بالعراق مريضة

فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

وهو هنا يتمنى أن ينزل من ليلاه منزلة الطبيب لمجرد القرب منها، والاستعانة بهذه المناسـبة لرؤيتها، والتوفر على خدمتها وعلاجها، بصـدق الحب، وحرارة الإخلاص.

أو أنه يؤمن بأن ليلى مريضـة بحبه وبالشـوق إليه، فيكون طبها عنده لا عند الأطباء والأسـاة. ولا نعرف للبيت معنى ثالثاً نصـحح به عقيدتنا في شـعر الحلواني فهل يعرف الأستاذ؟؟

التوقيع

هول الليل

عزاء [8]

(2)

إننا لم ننكر أن يشـــفي ألم الحب حبيب، ولا يداوي ما يورثه من الأدواء الباطنة والظاهرة طبيب، ولكننا ندفع عن الأطباء تهمة العبث والمجون، نحارب فساد الطباع وهزال الأفكار الضاوية، ونزعم أن لنا على الأستاذ سهران حق المعونة والتأييد في هذا..

فهل نحن على صواب؟؟

ويتهمنا الأســـتاذ [بتناقض الروح الفني والنقد الفني] مناقضـــة ظاهرة في تصـــويرنا. ذكر الحلواني أجداده، في مقام مناجاة حبيبته –بنبش الأكفان، و "نشر الرمم".. ونحن إنما نضع يد القارئ بهذا النقد على عيوب تخفى على غير الأديب المتعمق وقد لا يثير ورودها على الذهن، شـعوراً بالتناقض والمفارقة مما أحوجنا إلى رسم هذه الصورة، ونستحلف الأستاذ بالله عما يثيره في خياله ذكر [الدهور الخوالي] والجدود، ومحنة الدهر، وأبلى، واندبي، وممات، ونعاة و... قبر وهي الكلمات التي حفلت بها الأبيات الأخيرة المتتابعة في قصـــيدة الشاعر؟؟

(8) - صوت الحجاز -العدد (234) 1355/9/10هـ-1936/11/24م .

وهل يسع الأستاذ أن ينكر، أن توارد المعاني المتماثلة، وتداعي الصور المتشابهة وتساوقها حقيقة مسلم بأصالتها؟

ويأخذ علينا الأستاذ "محاسبة الحلواني على مزاجه في الحب، ويقول إن الشاعر الحلواني يستشعر الذلة والألم والحاجة إلى التوسل والضراعة في سبيل استرضاء حبيبته."

ونحن لم نقل إن الشاعر ذليل ضارع بل عبنا عليه أن يتهالك بين يدي حبيبته الواقفة منه موقف الاستعداد والاستسلام يسألها أن [تأخذه بالأحضان] وأن تقبله وهذا أقصى ما يفعله مقعد كسيح، أو مريض مضعوف في مثل موقفه، وكان من الواجب أن يتفطن الشاعر لموقف الحماس، وذكر الأجداد ومجدهم، فلا يقيم هذه الصورة الهزيلة من نفسه، والموقف بعد ليس موقف استرضاء أو ضراعة، فهو موقف حبيبته رزقها الله من الصبر والأناة، ما احتملت به كل هذا السخف والغثاثة!! فما حاجته إلى استعطافها؟؟

وأية حبيبة تسوغ لها طبيعة جنسها ولو كانت [عامية جاهلة!] أن تمثل هي دور المحب، ودور الرجل النشيط، فتقبل على الكتلة الناطقة ضماً وتقبيلاً؟!

وهنا فارق بين الذلة والرقة، واللين والضراعة، نود أن يرجع فيه الأستاذ إلى قواميس اللغة.. وإلى كلام الأصحاء من عباد الله.!

وقد أسف الأستاذ، لإسرافنا في التحامل على الشاعر.. ونحن نأسف لأن الأستاذ كان أكثر تحاملاً وقسوة عليه، وأشد إعناتاً له.. ونستشهد الشاعر والقراء على ما نقول!

ولا ينكر الأستاذ أننا لم نستقص كل ما في شعر الحلواني من العيوب والسيئات إبقاء عليه، وهذا وحده دليل على الاعتدال والهوادة، كان من الواجب ألا يعد ذنباً إن لم يعد حسنة.

وبعد! فلتكن هذه الكلمة، تحية منا للأستاذ سهران، وإعجاباً بلباقته وتقديراً لأدبه.

صراع[9]

لم ينجح الزمن في ترويض أحد مثلما نجح في ترويضـــي، فأنا اليوم شـــبيه بالإنسان من حيث الخلقة، وإن كنت أقرب شبهاً إلى الحيوانات المجترة. فلا أمل يستهويني، ولا غاية تستفزني، ولا شيء مما يدور تحت أنفي وخلف أذني يثيرني.

والدنيا عندي صـور تتدافع أو موجات يزجى بعضـها بعضـاً، والمدفوع منها يدفع ما أمامه، والكل ســائر إلى الهمود. وما أرى من هذه الحياة الواســعة المزدحمة الصاخبة إلا هذه الرقعة التي تضـمني تارة وأضـمها أخرى، وهي، مثلي جزء من الأرض يشـــيع فيه الحس، وكلانا بعد، موف على غاية مقدرة من الفشل والخمود، أو من القوة وتجدد الرغبة في الصراع!

وأظن أن الـذي يلحقني بالمؤمنين الأبرار، شـــعوري بأن الغـايات مقـدورة، والأنفاس معدودة، الأرزاق والآجال محدودة، وأن كل شيء لا يريده الله لن يقع ولو اجتمع له كل أهل السـموات والأرض، ورأسـي الآن شـبيه بالكوخ الخاوي تصـفر فيه رياح الصـحراء، أو أرواحها وروحي خامدة، وكل ما في نفسـي هامد لا ينبض، وأحس في قرارة نفسي، أني منطوٍ على قطعة مجدبة جافة من الأرض، لا يرف فيها دليل من دلائل الحياة، ولا تلح بمعنى من معانيها وقد تضيق سبلها أحياناً حتى أشـعر بانطباقها على جانبي، وطالما انتهى بي تطويقي فيها إلى جبال ووعور يأخذ بعضـــها بأطراف بعض، فأمضـــي فيها ما أثقل رجلاً، حتى إذا

(9) - صوت الحجاز -العدد (232) 1355/9/23هـ-1936/12/10م .

تكشـــفت لي عن أمل، تدحرجت منحدراً، متخذاً من رأســـي قدماً ثالثة، ولا ألبث أن أفتح عيني على الأمس بهوله وجدبه!

ولكني مع هذا أضـحك كلما وجدت إلى الضـحك سبيلاً، وآكل كما تأكل النعام، وأغمض عيني، كما تفعل الأحياء، وأحس دائماً بأني لا أنام نوماً طبيعياً، أذهل به عن نفســي، وأن في جســمي "ناطوراً" يختفي في نور النهار، ويظهر في ظلمة الليل، بعصــاه الغليظة، ذات العقد وعباءته الخشــنة التي تجعله شــبيهاً بحراس الحصـون القديمة، أو بأشـباح الليل المخيفة ويدور حولي صـامتاً، لا تثير الجلبة دقات عصــاه، ولا وقع خطواته.. ويحرســني أو هذا ما أظنه ويحميني أن تطوف الأحلام برأسي، أو أن أنحدر إلى وادي الخيال أهيم فيه لحظة منطلقاً من عقال الواقع السـهران أبداً، كما يفعل الراقص بعصـاه حول النار تنطلق نفسـه راقصة في حركاته العصبية المجنونة. فإذا أطلت الشمس، أطل على الواقع برأسه المنفوش، وعينيه المحمرتين ووجهه المرعب! هذا الواقع الذي يضع عقلي ونفسي كل صباح في قيد جديد.!

وبعد فما أنا غير ســجن مظلم مهدم تجره روح قديمة، شــبيهة بالســلع، أو بفضـلاتها التي تعرض في أسـواق النفايات وفي عيني معين يفيض بالهرم والكلال ما أرى من ورائه إلا الشيخوخة تدب في كل شيء دبيب الفناء في كل حي.!!!

والدنيا نفسها هذه العجوز الشمطاء المتوكئة على عصوين من عمى الأفكار وتزيين الأقدار!! أليســـت في حقيقتها شـــيئاً قديماً جداً، لم يبق فيه تعاقب الأزمان، وكر العصور معنى للجدة، أو رمزاً للشباب.

والزمن الرافض الدال على نفســه يتحول المرئيات وحركتها، أفتراه ســاكناً ككل شيء مما أراه لا يريم مكانه، أم هو وحده السائر المجد لهذا الموكب الحافل إلى نهايته المحتومة؟ أم تراه ميدان حرب تتطاحن فيه الجموع وتقتتل وتتنازع البقاء الرخيص، غافلة عن سيره الحثيث بها!!

لقد هدني السهر، وبرمت بعبء أثقل كاهلي الضعيف، وما يفتأ يسلط على قلبي الضـعيف وأعصـابي المخطوفة شـواظاً من اللهب يدفئ هذه الصـحراء القارصـة التي أجوبها وأضـرب في حواشـيها إلى غير غاية، ولكنه يلتهم منها كل معنى للعزاء وكل رمز للطمأنينة، طاوياً منها كل ما آنس إليه.

ذلك العبء الثقيل، هو رأسي الذي أنوء بحمله منذ تفطنت للحياة وغرست بتجاربها القاســية، ولو أن لي في موضـــعه من عاتقي رأس حيوان أعجم لما أخطأت العزاء في محنة.. فمن لي بذلك؟.!

وفي نفســي مقبرة، تنبت فيها قبور مليئة بالذكريات، أعشـــق فيها العداء والصــداقة، والحب والبغضـــاء، والفوز الحلو والفشـــل المؤلم، والمادة والروح وغدت كلها تراباً صامتاً وخواء موحشاً منقبضاً لا يتصل من الحياة بعد اتصاله بنفسي وموطن الذكرى فيها، بشيء.!

وقبري بين هذه القبور فارغ يتثاءب قد مل الانتظار... الطويل، كما مللته، فمتى يعتنق التراب بالتراب، فيخفت هذا الأنين، ويتعطل بالزمن؟؟؟

التوقيع

هول الليل

عظيم[10]

تتفاوت مقادير الرجال الممتازين بمقدرتهم على الابتكار والتجديد.

وللعقول أجواء خاصة تتميز بسماتها وإشراقها. والعقول التي تتوازن كفاءاتها في غير أجوائها هي خير العقول وأقواها وأتمها نضوجاً.

وإنك ليدهشك أن يكون الطبيب كاتباً قديراً. فإذا كان شاعراً موهوباً زادت دهشتك، فإذا كان سياسياً محنكاً أو خبيراً بفنون الحرب أفعم نفسك إعجاباً لا مزيد بعده.

ونحن نفضـــل قطعة من الأرض على مدينة زاخرة بالمعجبات لأن الفتنة التي تتجمع أســبابها في القطعة متجاورة متناســبة –لا نجدها في المدينة الحافلة ففي المدينة طراز من الصــناعة لا يتغير، فهي عاجزة عن اســتفزاز مشــاعرك الفنية وتغذيتها ولكن هذه القطعة تتعدد فيها الصــور وتزدحم فهي ترمز إلى صــناعة الحياة المدنية، بما فيها من قصــور ونظام وإلى فن الحياة النفســية، بما فيها من بســاطة طبيعية، وإلى متعة الشــعر بما يجول في حواشــيها من حلاوة الريف وعذوبته وامتداده!

ونحن نعجب بالبيت من الشـعر أو بصـورة من ريشـة الرسـام على مقدار ما يزدحمان به من معان ورموز.

(10) - صوت الحجاز -1357/12/20هـ-1939/2/19م .

فالرجال هكذا ورب رجل يأخذك بدسـامة ظاهره ووسـامة مخائله وحفول ملامحه، فإذا تكشـف لك في مجال المحدود عن طاقاته الباطنية: لم يعد أن يكون في عينك نجماً يتألق ولكن في فلكه الخاص المحدود. فإذا اندفعت فيه مع أطماع خيالك الشـره ودفعته إلى فلك غير فلكه اضـطرب وتذبذب، وانقلب شـرارة تجذبها عوامل غيرها من الأفلاك وتلعب بها.

وأنا اليوم أمام صـورة رائعة، صـورة رجل عظيم، نسـوق هذه المقدمة للكلام على عبقريته لا لتحليلها، فنحن من المؤمنين بأن في نفس العظيم وسـبيله في الحياة، سراً خفياً من العبقرية الموهوبة يعجز عن إدراكه التحليل.

هذا الرجل هو صـاحب المعالي وزير المالية الشـيخ عبد الله سـليمان الحمدان [11] الذي تتألق عبقريته في كل فلك يغشـاه، فهو في حفول نفسـه بمعاني العبقرية الفياضـة أكثر من رجل، وأكبر من عظيم. وما بالك برجل يأبى إلا أن يكون في كل أعماله، معنى من الابتكار والعمل الجبار؟ ومعنى من الأمل المنظم، ومعنى من الطموح الزاخر؟

وما بالك بعبقرية تضـم أطرافاً واسـعة من العمل والبناء، وألواناً من الرغبات والميول. وروائح من الابتكار والتجديد والإصلاح، والجهاد المستعر لها؟؟

ولسنا بسبيل الاستقصاء والإحصاء وحسبنا الإشارة والتوجيه.

([11]) - أول وزير للمالية في المملكة العربية السـعودية توفي رحمه الله قبل سنوات .

ولأن من حسـنات عاهل العرب الأكبر عبد العزيز الأول، ما نراه اليوم من آثار بارزة في نهضة شعبه الكريم، وإصلاح سبيله في الحياة، فإن من أكبر الحسنات ولا شك أن يكون هذا الوزير الخطير، يداً عاملة لجلالته.

إن ميادين النشاط، كميادين الحرب لا نفاذ فيها إلا للشجاع المقحام وهي إلى هذا كمجالات السياسة، لا سبيل فيها إلا للفكر البصير، والذهن المبتكر، والخيال.

كل هذه الصفات يطالعك بها وجه هادئ رصين الملامح تترقرق فيه قوة الأمل، وقوة الإرادة وقوة الإيمان وتجول مجالها في حواشيه الوادعة معان جذابة من اللطف والكرم واللين واتساع مدى الشعور ومعان ناطقة تعبر عما يزدحم وراءها من ألوان العواطف والخوالج والإحساس الدقيق لكل ما هو جميل وعظيم، وسوي وفتان وقوي.

هذا الوزير الذي لا تراه العين إلا هادئاً هدوء الفجر الحالم، لا يكون في داخل نفسه، وبواطن تفكيره إلا حركة دائمة ما تهدأ ولا تقر، وشعلة تتأجج بها عوامل مطمع جبار، وأمل ممتد، وتفكير لا تقف دونه الحواجز والضرورات فهو فوقها وبعدها دائماً.

وعودته همته الظفر كله، فلا وعر إلا اجتازه ولا ذروة إلا اقترعها وعودته فنوناً من الظفر الشعري، أروعها فن ظفره بقلوب الرجال، فكأنما في نفسه، سحر نفوسهم ومغناطيسها.

وفي لسانه فتنة تقود أعصى القلوب وأشدها مراساً، وتملؤها حباً وطاعة وتضحية، وتدعه في أذهان رجاله فكرة تضيء السبيل وتشحذ النفوس وتشد العزائم.

وهذا شأن العظيم، لا يكفيه من نفسه أن تمتلئ شعابها حتى تفيض وتطفى وتنظم الناس حوله، وتسلكهم في طرازه.

ولقد كان من حظ هذه المملكة أن يكون هذا الوزير فيها جمرة النشاط ودعامة البناء، وعنصر الحيوية، فما فتئ منذ تولى شؤون وزارته وأعمالها الواسعة دائباً على العمل والتجديد، والابتكار والتنظيم، بخطوات موفقة، تقترن فيها التؤدة الحكيمة –وهي حركة هادئة متبصرة– بالسرعة وهي رمز العبقرية واقتحامها.

ومن آثار تجديده وابتكاره في دوائر الأعمال، ما كان في ذاته دعاية باهرة للإدارة العامة في هذه المملكة، وهو في مواقع الشعور فتح للقلوب وغزو لعواطفها. ومن ينكر أن من خير الدعايات أن يكون لبناية الجمرك الحديثة هذا الرصيف الفني؟ وهي البناية التي تعاقبت عليها الحكومات من قبل وخلفها كما كان العهد بها مضعضعة في دلالتها على حياة البلد؟

ومن ينكر أن من دلائل النشاط في حياة هذه المملكة أن تكون لجمركها هذه المخازن المحكمة التي كانت نتائجها انقلاباً محسوساً في أسلوب حفظ البضائع ونهايتها؟

والجهد مبذول لإتمام مخازن لحفظ البضـــائع وقتاً أطول من الوقت القانوني، وسيكون الانتهاء منها إلغاء نهائياً لضريبة الأرضية التي لا يفهم منها التاجر إلا أنها حيلة الجمرك لاقتناصـه، وهي ليسـت أكثر من حافظ على تعجيل تخليص البضائع في خلال أسبوع، لتنظيم الحركة، وإخلاء السبيل. في مشروع كهذا تجد طابع وزير المالية الإنساني أوضح من طابعه الرسمي أو الإداري أو العملي.

فالفكرة فيه قائمة على ترقية التاجر وتبديد شـــعوره بالغبن والإرهاق، وعلى التقريب الفكري بينه وبين أنظمة الحكومة ومقرراتها ونصيب الفلسفة الإنسانية في هذا واضح بيِّن.

ومن يتتبع خطوات هذا الوزير الخطير، يدرك أثر النزعة الإنســـانية فيها وأثر النفس الشاعرة المستجيبة لنداء العواطف الاجتماعية الرحيمة.

ولا يقف مجهوده عند الحدود بل يتخطاها، ويتخطاها دائماً فالشـــعار الذي تترجم له أعماله المجيدة وغاياته النبيلة هو، إلى الأمام!

وإنك لتقف من أعمال هذا الوزير وميوله الصـــادقة، موقفك أمام الصـــناعة المدهشة ممزوجة بمطالب الفن الخالد.

وأمام مواهب العقل الاجتماعي، مقترنة بصفات الفطرة.

وأمام الإرادة الجائحة في سبيل من الحكمة والهوادة الإنسانية السامية.

فإذا كان للنظام الاقتصـــادي والاجتماعي في أمريكا أن يفاخر بأمثال فورد وفي مصـــر بأمثال حرب وفي غيرها بأمثالهما من أصـــحاب الأعمال التي يتوفر فيها نصيب العنصر الإنساني والاجتماعي، أكثر مما يتوفر نصيب المادة، فإن لهذه المملكة أن تفخر بهذا العامل المصلح، صديق الشعب، وصديق المبادئ الفاضلة ومثال العبقرية الناضجة.

وبعد فما بالغريب أن تخرج عظمة جلالة مليكنا –وهي مفخرة الجيل الجديد في تاريخ نهضة هذه المملكة– رجلاً فذاً كعبد الله السليمان.

إلا وإن لســـعود جلالة الملك، آيات رائعات، لا ينزل منها هذا الوزير إلا منزلة واسطة العقد من العقد، ولم لا يكونها وهو يد من أيادي جلالته البيضاء على نهضة شعبه المخلص المتطلع إلى الأمام؟؟...

الجزء الثانى بين النقد والجمال > تمهيد

تمهيد

"لو نظرنا إلى الوجود لما أصـــبنا معناه إلا في الإنســـان، ولو التمســـنا معنى الإنســـان لما أصـبناه إلا في الزمن الدائب.. والزمن ليس إلا إحســاسـنا بالحركة والتحول ولو وقف كل شـــيء في أعيننا لا يريم مكانه لما كان الجمال ولا كان الشعور بالسعادة.

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها؟ ما معنى الجدول المترقرق والحقل المهتز والنسمة؟

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها المتألق والبدر المشرق والليل الساجي؟."

بين النقد والجمال[12]

(2)

إن لبعض الصور والأشياء قوانين ذاتية لا تفسر اصطلاحاتها ورموزها إلا بمفتاحها الخاص. فإذا التمسنا فهمها بغير مفتاح هذه القوانين اضطرب بنا القياس واختلت الأحكام ونحن لا نطلب أن يكون مزاج كل شاعر صورة لأمزجة الشعراء في دنيا فيها الشيوع وفيها الندرة، وفيها الاتفاق والاختلاف والاستقامة والعوج والصحة والخطأ ونقول الدنيا ونعني بها النفوس وخوالجها ونزعاتها وعالمها الحفيل.

والحياة بغير هذا التنوع والتفاوت والتناقض والتباين خليقة بأن تفقد قوام معناها الفني.

والغلبة ليست دليل الصحة فما خلدت الحياة أحسن آثارها إلا من سبيل الندرة ومخالفة المألوفات الدارجة. فالشعر كلام تدور على ألسنة الناس ألفاظه ومعانيه ولكنه فوق الكلام الشائع. والشعر والعبقري نظيم كسائر الشعر في التركيب والتوليد والافتنان، ولكنه غير سائر الشعر في قيمه ومعاييره وعمقه وندرته. وألماس زجاج في الزجاج مثل بريقه وسطوعه ولكن ليست فيه ندرته وخواصه وصلابته. والهمجي لا يميز بينهما.

---

(12) - صوت الحجاز -1359/1/20هـ-1940/2/28م .

والناس يتفقون على حسن الجدول والحقل، ويتشابهون في الارتياح إليهما ويشتركون في تناولهما من ناحية الطلاقة الظاهرة، والجمال المتاح والمتعة الهنيئة ولكن الشاعر المبتكر والفيلسوف المتعمق والعاشق المشغوف، يتناولون في الحقل والجدول ومن معانيهما الخفية وحقائقهما المتخيلة وعلاقاتهما بهوى النفس والفكر، فرحاً وترحاً وطرباً وانقباضاً ما لا يستطيع الناس إدراكه أو الشعور به، فهل يعرف جمال الجدول والحقل بالنظرة الغالية أيهما، أم بالنظرة الفريدة تتخطى حدود النظرة العابرة والشعور القريب؟

ومن يظن أن فرحة الأديب والشاعر والفيلسوف بالجدول والحقل كفرحة الرجل العادي، أو من يرى أن شعور العاشق بنبض الحياة ومعانيها ونسيمها الخافت حوله وفي نفسه في حالات سروره وحزنه ويأسه ورجائه، كشعور الخلي اللاهي؟؟ فالشاعر والفيلسوف والعاشق لا يختلفون عن عامة الناس في هذا إلا بأن لهم حساً فوق حس الناس وأمزجة أدق وملكات أحفل وإدراكاً أخصب. فإن شئنا أن نقارن بين نظرة الفيلسوف والشاعر وبين نظرة الرجل العادي إلى شيء وجب أن نعطي كلا نسبيته وقانونه. ولا يكفي هنا أن تكون النسبة الشائعة القانون المشترك إنسانيته الضدين وتشاكل ظاهرهما وحدة الموضوع.

ورب ناظر يرى الجدول فيرى لغة الجمال تتزاحم فيها المعاني وتتداعى فيدرك كل معنى منها بشتى الحواس، وآخر يراه بالعين المجردة والخيال المحدود فما يجد

فيه إلا ما يجد الحيوان الســـارح أو الطائر المتوثب أو الطفل الطروب من فرحة قصيرة الأجل حنيقة المدى.

هذا فرق ما بين الناس والنظرات. وليســـت الدنيا هذه الرقعة الواســـعة الجامدة، إنما هي هذه المعاني المنطلقة المتجددة في خياله ونفسه وفكره. وبذلك تدفع الحياة من نفوس الشـــاعرين بها لغوب الســـآمة، وفتور الملل. فالحياة كما قلنا –حياة بالتغيير الدائم، والتجدد المســـتمر والتطور إلى أرقى وأكمل معانيها وحوافزها وأفتن مظاهر جمالها بل هو معنى الجمال وســـره فيها والســـعادة –في رأينا– هي المسرة المتجددة.

والجمال من أغلى غايات الســـعادة إن لم يكن أغلى غاياتها فلو لم تكن الســـعادة غاية النفس أكان يكون الجمال مطلبها الذي تريمه وتلتمســـه؟ فإذا لم يوح الجمال بالمسرة المتجددة لم يضمن السعادة وهو فخها المنصوب وأحبلتها القائمة.

وكيف يضـــمن الجمال تجدد المســـرة واطرادها إن كان غير قدير على تجديد معانيه وتنويع مؤثراته وتزويدها بالألوان والطيوف والأخيلة الموشـــاة؟ فهل يطيق الجمال هذا العبء والزمن جزء من معنى الجمال والشـــعور به؟؟ وأي شـــيء في الحياة تبقى له روعة جماله، وجدة معناه في نفوسنا وأبصارنا بعد فهمه واستغراقه والتزود بخير ما فيه وأجمله؟؟

إنا لو نظرنا إلى الوجود لما أصبنا معناه إلا في الإنسان، ولو التمسنا معنى الإنسان لما أصبناه إلا في الزمن الدائب.

والزمن ليس إلا إحساسنا بالحركة والتحول ولو وقف كل شيء في أعيننا لا يريم مكانه لما كان الجمال ولا كان الشعور بالسعادة.

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها؟ ما معنى الجدول المترقرق والحقل المهتز والنسمة؟

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها المتألق والبدر المشرق والليل الساجي؟؟

أليست حقيقة معانيها في نفس الإنسان ونظرته وشعوره وما كنه هذه الحقيقة ومعانيها في نفسه إلا أنها جزء من الزمن المتغير وساعاته المتجددة؟

فالمباني تنسب إلى مظاهر الوجود من قبيل التغليب وإلا فهي في حقيقتها معاني أنفسنا وصور أفكارنا ومشاعرنا وتأثراتنا.

وهب أنني رجل أكمه الذوق. فما تكون معاني هذه الصور في نفسي؟

أو هب أنني فلاح يقضي حياته بين حقوله وعلى صفحات جداولها المنسابة؟

تتلون معانيها في نفسي ودخائل فكري هذا الجمال المعبر الأخاذ. الذي يحسه الشاعر ويساجله ويناغيه العاشق ويحدثه الفيلسوف ويستنطقه أم أنها تكون عندي رمز الكد وضرورة الإنتاج والنصب للعيش وضروراته القاهرة؟

ونحن نشير بالاستصفاء والتذوق إلى غير علاج الفكر والنظر، فهل فهم الأستاذ الصديق كناية هذا العلاج على وجهها الصحيح، أم كانت الغيمة أقل شفوفاً عما يحول وراءها، فبقيت للألفاظ مدلولاتها الدانية؟

وحسب الصديق أن يقيس وقع السماء في النفس، في حالاتها الخاصة إلى وقع الجمال الحي النابض في شتى حالاته ليرى الفارق جلياً فوق بداهة النفس والفكر عشرات الأدلة عليه.

ولو افترضنا الدوام والإدمان للنظرة إلى السماء لما كان هذا دليل الفهم والإحاطة بمعاني جزء من مظاهرها المجهولة.

وكلامنا على إدمان النظرة المشفوفة إلى الصورة الجميلة والعكوف على استصفاء معانيها وتركيزها، يعني الفهم والتذوق والتغلغل في أطوائها، والإحاطة بما يفرضه الخيال المتداعي لما يكمن وراء حدودها الظاهرة فما تقاس به النظرة إلى جمال السماء أو جمال الفكرة الفرضية عنها.

والسماء بعد من مظاهر الوجود الثابتة بالنسبة إلى عمر الإنسان المحدود فهي على نقيض الصورة الجميلة الحية، يكون الزمن جزءاً من حقيقتها. وطبيعة الشعور بها وإلحاح الشوق إلى استصفاء معانيها والزمن ولو كان ربيعاً كله ما كان للربيع معنى جدته وسحره ورونقه الأخاذ لذلك كان تعاقب الصور وتجددها شرطاً لازماً لضمان تأثير الجمال، وتأثير معانيه. ولذلك كان الزمن جزءاً من حقيقة الجمال أو كان أهم أجزائها.

وقد قلنا إن الحياة تكون جميلة رائعة بالتغيير والتجدد ونحن نرى أن أصحاب الإدراكات الواسعة والإحساس القوي والتذوق العميق أكثر تغييراً أو ابتداعاً وأكثر ميلاً إلى التغيير والابتداع وهذا تقليد لمجرى الحياة الصادقة فهل كانوا هكذا، وإلا لأنهم أفهم للحياة وأفطن لمعاني الجمال وأكثر طلاباً لها وتوفراً عليها؟ وهم بعد أسرع مللاً من ذوي النفوس الراكدة الذين يرون الجمال بحواس لا تختلف عن حواس البهائم السائمة فهم لا يعرفون الملل لأنهم لا يعرفون التوليد ولا تتفجر في نفوسهم المعاني والخيالات والمطالب ولا تتداعى الصور.

وقد نرى إنساناً يسحره البدر لأنه المضيء الساطع. فإذا شبهه بمن يحب كانت الصلة عنده بينهما اللألاء والاستدارة. وإنساناً يرى في البدر حيالة فتنة الحي الرائعة ومشابهة وسهومه وخيالاته وحيرته وسأمه وخفوقه وله عواطفه ونوادره الطريقة إقبالاً وإدباراً ونشاطاً وفتوراً.

أفلا يكون من له هذه المقدرة على توليد الصور والمعاني أفطن لحقيقة الجمال الواسعة وأقدر على التهامها وتذوقها وعلى تركيزها وإذابتها؟

وبعد فهل يسعنا أن نتصور في الحياة جمالاً غير مسؤوم؟ أو جمالاً لا تصرفنا عنه صوارف الفهم والاكتفاء وإدمان التذوق والمصاحبة الطويلة؟

إن تأثير نوازل الشقاء الطارئة أعمق أثراً في النفس من مسرتها بالجمال فأية نازلة في الدنيا لا تخلل معناها السلوى ولا يذهب بفجيعتها الاعتياد والألف.

فذاك حيث زعمت أن إدمان النظرة إلى صورة جميلة يفقدها شيئاً من تأثيرها كلما تجدد إليها النظر المشـــغوف وارتوى منها الحس المفهوم. وذاك حيث زعمت أن لبعض الأذواق قوة النار واستشراءها ما يستقيم الجمال في لهيبها الجاحم إلا قليلاً.

وذلك حيث يكون الذوق العامل على تحليل معاني الجمال واســتســاغتها، ذوقاً ســؤوماً متحولاً لا ينتهي عنده عمر لصــوره الجميلة بانتهاء عمر معانيها فيه.

وهذا كلام يصـدق على عشـاق الشـعر وهواة الفنون، صـدقه على عشـاق الجمال ومعانيه، وطلاب غرائبه وطرائفه، ورواد مجاهله وأوعاره.

ولقد قرأنا كما قرأ غيرنا أرق صــور الشــعر، وأجمل معانيه وروائعه، فما زال الإدمان ينتهي بها إلى الإصــغاء حتى أصــبح عندنا أشــبه بالكلام المردد على الألسنة.

والحجر المنحوت بالصنعة المركب في نحو عمود أو عتبة يفقد روعة معناه مع إدمان النظرة فينقلب صــورة فاتنة الأداء والجمال مجهود الناحت دليل مقدرته ولكن يبقى في الشــعر الجميل بعد انقضــاء الإعجاب به أثر قائله وأثر جهده الفني، ولذلك بقي بعض الشعر ببقاء أسماء قائليه واندثر بعضه باندثار أسمائهم.

وقد يلقانا الجميل أول ما نلقاه بحشد من معانيه الفاتنة ليست هي أداءه عن نفســـه ولكن أداءنا عنه وعن موقعه من نفوســـنا وأفكارنا فما نفتأ ندور بهذه

المعاني مطابقة وقياساً ومداً وجذراً وإطلاقاً وتقييداً حتى نشعر بنشوة امتلاكه واحتوائه فإذا الاكتفاء أو التجدد المنتهي إلى انقضاء التأثير فيستحيل شعور بالصورة الفاتنة إلى ما يشبه شعور العاشق بعد إفاقته من غيبوبته واستغراقه.

وقد قلنا الجمال والصورة الجميلة ولسنا نعني المثل الأعلى للجمال حتى يشعر صديقنا الأستاذ بهول الفجيعة في ما نقول على أننا نظن أن النفس متى ألقت ملامح مثلها الأعلى انصرف بها سأمها أو اكتفاؤها إلى مثل غيره فيتصور له الزيادة وتفرض الأرباء، وإن عجزت عن استحضار الصور وتحديدها.

والخلود الموجود أليس هو مثل الحياة الأعلى؟ فقد جاء في تصويره والحكاية عند ذكر السأم واللغوب ونفيهما، فهل نفيهما إلا لأنهما من طبائع النفس الإنسانية وخصائصها، وإلا لأن ورودهما عن النفس في غمرة الخلود ممكن لا مفروض؟ والجميل ذاته لا يروعه أن يكون لجماله لغة يفهم منها الناس ويحسون ما لا يفهم ويحس ألا تراه خطأ أن يظن ظان به الترف والنعمة والثراء العريض، حيث لا يرى هو في نفسه، إلا دون ما يراه موفوراً في الناس أو مثله؟ لذلك كان الحب الفصيح الملذوع جمالاً يؤثر الجميل ويدنيه، فهو لغة قوته في ضعفه، ومعنى اختياره في اضطراره. والجميل يعرف بحاسة الجمال فيه ولا يدهن صديقنا الأستاذ أن تكون للجمال حساسية أم يصطلح عليها الناس بعد ارتواء العطشان اللاظي لا يبقى للماء إلا معنى أنه ماء وقد كان في حرقة الحاجة شيئاً ألوف المعاني تخطر خطراتها الهزاز في النفس والحس وإطواء الفكر وأن الماء في

ذاته الماء لا غير، ولكنه في الظامىء أو عنده، المطلب الذي تتجمع فيه معاني الحياة، وأسرارها؟ وحاسة الجمال تعرف بعض من خطرات معانيه في النفوس أنه حقيقة الحب فإذا ظهر لم تكن حقيقته في ذاته إلا حقيقة الفكرة عنه ولم يكن عمره إلا عمرها الآخذ في الإدبار كمعاني الماء في نفس الظامىء، تعيش بعيش الظمأ وتزول أو تختفي بانقضائه.. والماء بعد لم يتحول.

ومن هنا يعرف الأستاذ أني لا أوجب تحول الصورة الجميلة، ولا أرى أن تفقد حقيقة جمالها الظاهرة، ليتم الاصـــطفاء والفقدان الذاتي الذي راعه أن يكون نتيجة الوفاء للجمال أو فهمه.

وصـديقنا الأسـتاذ يحب الحياة –كما أسـلفت– ويحرص على محصـوله الفاتن من صـــور الجمال فيها، فلا يجب أن يفجعه التجريد في ذخيرته منها، ولكن الوفاء الذي تعرفه الحياة لا يصرف الإطلاق الذي تعرفه طبيعة الشاعر العاشق وتألفه ولا يصـــرف أباطيل الخيال المتدفق وروغاته فما ألوم الأســـتاذ عن رؤيته يلتمس الدليل على اختلاف نظرتي بشيء من الشعر الجميل يضطرب، المقياس في يدي فما زالت النفس التي تشـــعر بوفائها للجمال المحبوب، ترى الوفاء ضـرورة يتسـع بها مدى الشـعور بالكرامة والصـدق.. ونقول آسـفين –إن الحياة لا تكون الحياة إلا بتردد هنة الفجيعة فيها. وقد قال المتنبي الذي اســـتعداه الأستاذ على نظريتي في الدنيا.

ولا خير فيها للشجاعة والندى

وطيب المنى لولا لقاء شعوب

وقال ابن الرومي:

إن من ساءه الزمان بشيء

لخليق إذن بأن يتسلى

ونقول نحن:

ومعاني الحياة تفجع في الحسن

وفي الحب، والمنى والوفاء

نود أن نسأل الأستاذ الآن عن معنى الجمال في الأبيات التي ساقها للتدليل على زيف نظرتنا ما شـــارته؟ أهي دقة الحقيقة الفلســـفية وصـــدقها؟ أم جمال الصياغة؟ أم من الشاعر قوة تأليفه؟ أم شيء يعرفه ولا نسميه؟

أما نحن فنعرف أن الجمال غير الحقيقة وغير الإتقان، وغير التآلف ولا نرى في أبيات المتنبي من حيث الصـــياغة الفنية جمالاً يغري بإدمان النظرة ولا من حيث المعنى إلا صحة الحكم.

ولا نرى في بيت شـــوقي إلا إطلاق الخيال والإحالة وما فيه بعد هذا ما يأخذنا بشـــعور المفاجأة أو حلاوة المســـرة ولعل بيتنا –على بســـاطة تركيبه

وضــعف الســياق فيه- أضــمن لتوكيد هذه المســرة بالجمال والحب، وأحفل بالرموز وأغنى بالمفاجآت وأدق، أداء وتصـــوير الحقيقة من حقائق النفس في الحياة أو للحياة في النفس.

والحقائق في أبيات المتنبي لا تتغير على الزمان.. فروعتها روعة للصـــحة والثبات ومســـايرة واقع الحياة ومطابقة ســـيرها فما فيها بعد أن تغدو مفهومة المعنى ما يشيع المسرة في النفس أو ما يشعرها بتغير الصور وتعاقبها.

وقد قال المتنبي:

لو فكر العاشق في منتهى

حسن الذي يسبيه لم يسبه

وما زال كل عاشـق يتصـور منتهى حسـن الذي يسـبيه، ويرى نهايته المحتومة ولكن هذه النهاية المتخيلة لا تصـرفه عن الحب والانقياد، بل لعلها خليقة بأن تزيده حرصاً على مسابقة الزمن وحماسة الولع ورغبة التزود.

فالحكمة الصـادقة لا تنتصر على منطق العاشق، ولا تنال من سلطة الجمال وحقيقته وإن كانت سلطة الجمال أو حقيقته قصيرة العمر ورهن التحول.

فإن كانت حقائق الفلسفة الصادقة في الشعر الرقيق أو الشعر القوي جمالاً فأي الجمالين أجلب للمســرة وأضــمن للنصــر وأبقى أثراً في النفس، وأقوى سلطاناً عليها؟!

أترانا الآن بحاجة إلى غشـيان كهوف الشـعور وسـراديب النفس ويسـألني الأسـتاذ في لوعة المفجوع المنكر.. عن كلمات العدالة والحرية والحب والجمال ما لها تفعل فعل السحر في العقول؟ وما لها لم تصب بالإصفاء والإفلاس؟

وأنا لم أتحدث عن هذه الكلمات حتى تكون على تبعة جمودها واستعصائها ومغالبتها للفناء والإصـفاء، فما أراها جزءاً من الجمال الذي قلت فيه كلمتي المقلقة..!

إنما نتحدث عن الصـورة الجميلة تأخذ فيها النفس الذواقة بحظها من المتعة كاملاً فتكتفي أو تتحول، فإن لم يكن ما قلته حقاً نرى موضعه المكين الواضح في النفس والحياة فليكن الزمن لحظة جامدة تقف فيها دورة الفلك المغذى عن السـير ولتكن الصـورة الجميلة بعد رسماً جامداً لا يعدو حدود إطاره القاهرة، حتى يأمن من مزاج صديقي الناقد، الفجيعة في حقيقة شعوره بالجمال والنفس!

ويقول الأستاذ الصديق "والجديد جدة مطلقة لا يلحظه الإنسان إنما يلاحظ ما يعرفه بعض المعرفة" وسـاق تجربة اسـتدل بها على صـحة نظرته ثلاثة من عمال مطبعة نشـر بينهم كتاباً جميلاً ليرى أثر (هذه الصـورة الجميلة) في نفوسهم.

أما عامل الصف فقد أخذ بإتقان صف الحروف و (جمالها!) ولم يتحدث عن الطبع والتجليد، ومثله فعل عاملا التجليد والطبع.

وإني أعترف في شجاعة لصديقي الناقد، بأن هذا المثل قد أدار رأسي حقاً فإن أبى إلا أن أتناول بالمناقشة كلامه هذا، فليحدثني أولاً عن فرق ما بين الاتفاق والجمال عنده فقد بدأت أشعر بأني خولطت وتداخلت في فكري حدود الأشياء. فالجمال عندي غير الإتقان ودقة الصف والتناسب وأظنه هكذا عند غيره من أبناء آدم وما بي أن يكون غيره، ولكن بي أني لم أرد أن أتحدث عن شيء آخر في حديثي عن صور الجمال أو الصور الجميلة الإنسانية أو الصورة التي ينفخ فيها خيال الإنسان من حياته ويسبغ عليها من معانيه وما يجعلها وثيقة الاتصال به. أما الكتاب المطبوع؟...

وهنا يحسن أن أقف رحمة بي وبالقراء وأن أسجل تقديري العميق لصديقي الذي أنسب إليه ما في كلامي من حسن أو قبيح لأنه مثيره وباعثه.. وإلى اللقاء إن أتاحته الفرصة، وأسعف به الجهد المضعوف، والذهن المكدود...

بين النقد والجمال[13]

(3)

ليس أشــقى للنفس من أن تبقى غامضـــة عند من تنكشـــف له عن أعمق وأخفى مكنوناتها. ذلك معنى من البعد ينتهي عنده جهد القرب والدنو، أو معنى من اليأس يقف عنده سير الأمل والرجاء.

وما نظن أن حسـرة تكون أبقى في القلب وأدوى له من حسـرة شـاك يفتح مغاليق قلبه بين يدي من يتوسم فيه الارتياح والإصغاء والمسايرة فإذا بلغ غاية أمره في شـكواه، كان بينهما مدى مترامي الأطراف تضـيع الأصـداء في مخارمه الصماء.

كتبت عن الجمال في عددين فائتين من أعداد هذه الجريدة [14]، ما حسبته غاية في الوضـاحة، صـادراً فيها عن تجارب نفسـي وواقعها، وعن خبرتي العميقة بالحياة والنفوس، فإذا هو الدعوى التي لا تنهض بها حجة، ولا يســـتقيم لها قياس، عند صـــديقي الأديب عريف، وإذا كل نصــيب حقائق الفكر والنفس بيننا أن تكون جدلاً مردداً، يدور به الكلام، وتتجدد المحاورة، وليس فيه بعد ذلك إلا أنه سبيل أن يلقي أحدنا السلاح.

---

(13) - صوت الحجاز -1359/2/8هـ-1940/3/18م.
(14) - صوت الحجاز-1359/2/8هـ-1940/3/18م.

وما بي والله إن ألقى الســـلاح، أو يلقيه هذا القرن الصـــامد ولتكن بي أن أكون مكفوف الصــطا في هذا الجمال الذي تصــطلح على تقييد انطلاقي فيه قيود من العرف الآبـد، وقيود من الود الوثيق، وقيود الفطنـة لطـاقـة الحيـاة الفكرية عندنا ولطبيعة إدراكها اللموحة.

وقد ســـئم الناس –أو كادوا– أن أقول فأطيل القول في تدعيم نظراتي إلى الجمال وقرضـها، وحسـبوها محاولة ظاهرة الدلالة أتحرى بها الأغراب والشـذوذ، فيما تخادعهم عنه نفوسهم في حقيقة الجمال ومعانيه، وفي حقيقة الشعور به.

وأكثر الناس مطمئنون إلى حياتهم وإلى مذاهبهم الهينة في فهمها، وتفســـير قوانينها. والإحساس بالجمال والقبح فيها وحريصون على أن تبقى لهم الفرحة، وتدوم المتعة بها كأنما هم في جلسـة التفرج الهادىء أو المفكر السـائم المنصـرف عما في الحياة من جد ولهو بما في نفســه من طمأنينة وارتياح أو فتور وملل. فما يسر من كانت هذه حاله أن يقتحم عليه خلوته الناعسة الكليلة، أديب تسبقه الطبول إيذاناً بإشهار الحرب على الجمال وتجريده ورج جوانبه.

والناس إن لم يطيقوا الفجيعة في هذا كانوا على حق. فما يطيق الفجيعة في عقيدة من عقائد نفسه، أو في خيال من أخيلته إلا من فجعته الحياة في حقائقها الزائفة، وحججها الباطلة المدفوعة.

وشـأن الأديب في العرف أن يضـاعف محاسـن الحياة، ويزيد الشـعور بمسـراتها لا أن يمسـخ صـورها الجميلة ويهدمها ولكن هل يسـع كل أديب أن يكون هذا

مذهبه، فذاك حيث ألقى الناس كما لقيتهم بجديد هو لغة الهدم والبعثرة والإقلاق في نفوسهم ومعتقداتهم الفكرية، ولغة البناء في منطق فكري واعتقاده.

وما تزال أدق البصائر، أفطن لعيوب الحياة وحقائقها المشوهة كما هي أفطن لمحاسنها وحقائقها الصحيحة.

ومن يظن أن المتشائمين ثائرون على الحياة ومسراتها، أو كارهون لمباهجها إنما هي ثورة الراغب المستزيد، لا ثورة الكاره المحتوى.

وقد تفطن الأستاذ عريف إلى أن سلاح الحيدة عن مناقشة نظراتي وقرعها بالحجة الدامغة هو السلاح الذي يضمن له أن أتكلم وحدي، وأن يكون صوتي المسموع لتكون الحرب بيني وبين سواد القراء، حرباً أكون فيها المهاجم الشاذ لا يبالي إن تقع بطشته من نفوسهم وعقائدهم الفكرية، فيلقى الأستاذ الكلمة لا تستوي علاقتها بما نجول فيه أو تحوم حوله ويكون عند القراء قد رد العادية وجال مجاله فيها، ونصيبي من الكد والجهد الناصب بعد ليس نصيبه، ولكنه ينحدر إلى نفوس الناس هذا المنحدر السهل الرقيق والسهولة ما تزال عندهم أداة، الزينة والمسرة وشارة التعلل والعزاء، أو هي مادة الاجترار التي ما تنتهي بها النظرة البارحة إلى إصغاء.

ولقد يكون من الممتع حقاً أن يظن الأستاذ الصديق أن هذا محك الحقائق والنظرات، وغاية النفوس والعقول، وهو في حقيقته العارية غاية الاسترخاء والتهويم.

فإن كنا لا نكتب إلا لأوساط الناس فقد وأدنا خير عناصر الجمال، وأقوى وأحفل معاني الفكر والنفس، ولم يكن أثرها جهدنا المبذول أكثر من متعة يزجى بها الفراغ ويتاح اللهو للنفوس الراكدة والعقول المهمومة.

وما أراني وأراه أمام القراء إن سلكنا هذا السبيل إلا في حلقة الملاكمة لا يعرف فيها سبيل المقارنة الدقيقة، والحكم الفني الصحيح، إلا من تضيع أصواتهم في دعكة الضجة المنطلقة، والهرج العالي. ثم لا معنى بعد إلا للضربة القاضية وأين هي مني ومنه، إن كانت الوسيلة إليها إن استمر على تدعيم حجة يغفلها الرد، وينصرف عنها النقد، وأن تكون الكلمة لي، ولي دائماً.

فهل يسعني أن أبقى هكذا كالمتهم بالجرم كل شأنه أن توجه إليه الأسئلة وأن يجيب.

لقد عرف الناس عني. كما أعرف عن شأن نفسي أنني لا أضيق بالكلام ولكني أكره أن أطيل الجولان حول نقطة لا يعدوها البحث، ولا يتخطاها الشرح والتفصيل، وما تعنيني والله راحة الناس، أو دفع الظنة عن بصري بالعيوب والمفارقات، إنما هي سآمة من يشعر أنه يضرب في أحشاء الفضاء.

فإن كانت هذه لغة الهزيمة، وإلقاء السلاح. فلتكن براءة مني لصديقي الأستاذ الأديب، يكتسب بها فوزاً جديداً عند من تكون الحياة في أبصارهم متحفاً من الصور الجميلة والأحجار المنحوتة والخشب المنجور. لا يفصل بينهما وبين الجمال الزائل المتغير القابل للإصغاء. وفقدان التأثير في النفوس إلا

أنها باقية وهو متغير، وجامدة وهو منطلق. مدهونة لامعة مزخرفة، وهو بسيط عاطل من الزخارف والوشي.

ولهذا أخلق بأن يجعلها أجمل عندهم وأبقى أثراً في نفوسهم، وأغلى موقعاً فيها. ما دام هذا منطق من يخافون الفجيعة ويفرقون من مفازع الحرية والانطلاق ومفاجآت الزمن الراكض.

وهب أن هذا شأن أوساط الناس ومبلغ فهمهم للحياة والجمال ومقدرتهم على تفسير رموزها ومعانيها، أفيكون أيضاً شأن الأستاذ الأديب؟ أم هو لهو الفراغ وثرثرة البطالة الفكرية، يسوقاننا إلى تسويد الصحائف وإطالة النقاش في غير جدوى؟

يقول الأستاذ إنه لو كان له أن يستقبل ما استدبر في نقد نظراتي إليها لسلك طريقاً غير طريقه الذي سلك وأنه لا يصرفه عن التنكر لي إلا حرصه على ألا يعصف بصلة الود بيني وبينه.

فما أحبه إليّ عبدا يريحني من عناء قيد حز في قدمي حزه الأليم. ويحسب الأستاذ الصديق من أن تكون نفسي أعمق النفوس ارتياحاً إلى الصدق والتجريد ولو عندي بعد عقيدة مؤمن ما تزلزلها أقوى المؤثرات عنفاً فكيف بها إزاء هذه اللمحات العابرة.

بين النقد والجمال[15]

(4)

والمؤثرات التي أعدها لغة التدليل والتحبب وتوشيج الأواصر الفكرية والنفسية.

فليستقبل الأستاذ من أمرها ما استدبر وليقل كلمته الصحيحة العنيفة في كلمتي التي دعاها "حدث الأحداث في تاريخ حياتنا الفكرية."!

ولا عليه في ما اندفع فيه من قول أملاه الحماس، والاندماج في فورة الجماعة فله أن يدفع التهمة عن نفسه بأنه كان بينها أضعف إدراكاً وأقوى شعوراً، وأنا ضمين له بأن لا يضطرب الميزان في يده، وأن لا تخلو كتب علماء الاجتماع من نظرية تأخذ بيده حتى في أضيق السبل وأحرج المآزق.!!

وبعد فما أود أن أملك على الأستاذ مذهبه في التنصل من مسؤولية كلمته التي أخطأ في نسبتها إلى علم الاجتماع. فقد يضيق صدره بأن يعرف أن كلمته بهذا التعديل الذي تجني به على المطبعة وعمالها الأمناء، فقد عادت أكثر قلقاً وشذوذاً وغرابة فقد قال "يقول علماء الاجتماع إن انصياع الجماعة واندفاعها أقوى من انصياع الفرد واندفاعه" وقال بعد التعديل "إن الفرد وسط الجماعة أقوى شعوراً وأضعف إدراكاً منه وحيداً."

---

[15] - صوت الحجاز -1359/2/11هـ-1940/3/21م.

ومعنى هذا "أن الفرد وحيداً قوي الإدراك ضعيف الشعور" وأنه وسط الجماعة ضعيف الإدراك قوي الشعور.

فهل يتفضل بتعليل الحماسة التي قوبل بها حديثي في ندوة الإسعاف، أكان مصدرها الإدراك لمعنى ما سمعت الجماعة! أو هو الشعور بشيء لم تدرك معناه! وعندئذ هل يشعر الإنسان بمعنى ما لا يدرك؟ أم يدرك معنى ما لا يشعر به، وهل هناك من فاصل بين إدراك الإنسان لشيء وشعوره به، في حديث يسمعه، وهل الشعور بمعنى الشيء غير إدراك معناه، أم إدراكه غير الشعور به. وهل يكون الفرد أضعف شعوراً بما يكون أقوى إدراكاً له ولماذا؟

ثم أترى لو سلم للأستاذ معناه في العبارتين، أكان يكون معنى تقريره أن الفرد خارج الجماعة أضعف شعوراً وأقوى إدراكاً إلا معنى أن شعوره بقيمة ما سمع من حديثي بين الجماعة ضمين بأن يضعف ويتحول بعد قراءته؟

وإلا أن إدراكه لحقيقة ما قرأ بعد أن سمع، جدير بأن يفقد حماسه وتأثره، فأنا أطالبه ملحاً بنتائج دراسته الهادئة الخالصة من تأثير الجماعة.

إن للأستاذ الصديق في حيلته الفنية الدالة على سعة حيلته وبراعته قوة ما أظنها عاجزة عن الإمعان في التنكيل بغفلة المطبعة وعمالها البلداء مرة أخرى بل مرات، وعساه ينسى أنه مصحح كل كلمة في مقاله، والراصد الذي ما تخطئ عينه الهمزة والنبرة، لتكون المفاجأة أحفل بالدلالة القوية على عمق شعوره بضعف جماعة القراء، والمتتبعين لما يكتب، ومن حسن الحظ أن ما يكال

جزافاً، وما يوزن بدقة، عند سواد الناس شيئان لا تختلف بهما السبيل، ولا يختل القياس والمطلب أن يقرأ الناس له في كل عدد يصدره كلمة يطول بها النفس أو يقصر.

أليس ما أقوله ويقوله كلاماً سبيل بعضه سبيل كله، والناس يقرأون، فليكتب إذن فالمجال خليق بأن يرحب بكل قدير على رص الألفاظ وسوقها وأين الفاهمون.

وما لنا نحمل الأستاذ على هذه المضايق؟ أفلم يعد له أن يستقبل من أمره ما استدبر فيعفينا من الضرب في هذا الخواء؟

ليعلم الأستاذ أننا لا نحتال لبلوغ رضى القراء وإن كنا أعرف بسبل هذه الغاية وحبائلها وإنا لنترفع عن أن نقف منهم موقف التهريج والاجتذاب والحيلة وما يزيدنا في أمرنا وسيلة بصيرة أن يكون العطف علينا منهم، أقصر من التنكر، ويحسبنا أمامهم أن نعرف بهذا الطابع، إن أحب غيرنا أن يعرف عندهم بغيره حتماً يظن أن مما يضرهم غنانا عن الاستعانة بعطفهم، فالعلاقة بين الكاتب والقارئ ليست علاقة الحبيب بحبيبه، ولا هي علاقة الخادم بسيده، وإن كان الأستاذ عريف يفهمها على غير ما نفهم، فله في ذلك مذهبه الذي ما ننازعه إياه، وحسبنا أن نصحح وهمه في كلمة يستعدي بها قراءه علينا حيث زعم أني قلت إن هناك فرقاً ما بين نظرتي ونظرته إلى الصورة الجميلة هو الفرق ما بين نظرة الفيلسوف الشاعر، ونظرة الرجل العادي.

لو كنت أعرف لنفســـي الفلســـفة الشـــاعرة، لمنعني ما عرفت به من الحياء والتواضع وإنكار الذات، أن أنتهز هذه المناسبة للإعلان عن نفسي.

إنما قلت إني ذو مزاج ســـؤوم!! لا أدع الزمن يفجعني في طمأنينة شـــعوري بطرافة الأشياء. ولم أقل بعد هذا شيئاً عن نفسي في بقية المقال.

بين النقد والجمال [16]

(5)

وأنا بعد أكثر الناس تقديراً لقيمة صـــديقي الأســـتاذ عريف ولعلي أول من أشـــاد بذكره وفرضـــه على الأفهام العديدة محتملاً فيه مشـــقة العتاب المر ممن يترصدون نشاطه اليوم بكثير من القلق والارتياب.

فإن كان هذا من طبيعة المن الذي اكتشـفها الصـديق فيّ فما كان سـببها إلا التجني منه وأنا من عقباها بريء.

وقد اتهمني بالجرأة، ونفاها عن نفســه، فمالي لا أهتبل الفرصــة –كما يقول الأســتاذ الســباعي – [17] لأرخي العنان لنفســي قليلاً وللقراء أن يفهموا عني ما تشاء لهم فنية الموقف وشعرية البواعث مثلاً؟

وما أخلقني بأن أدير رؤوس القراء بالســـير في هذه الســـراديب كما أدار الأســتاذ رأســي!! أو كما أدارني عليه!؟ وأنا كفيل بأن أردهم إلى الصــواب متى استقبل الأستاذ الصديق من أمره ما أستدبر. وفي حديثي عن الفضائل والرذائل

---

(16) - صوت الحجاز -1359/2/15هـ-1940/3/25م.

(17) - أحمد الســباعي صــحفي وكاتب قصــصــي من رواد الأدب الســعودي، له مؤلفات عديدة، أنشأ جريدة قريش المحتجبة، شرفت "الاثنينية" بطباعة أعماله الكاملة في ستة أجزاء عام 1431هـ-2009م.

والرجولة والأخلاق فضـــول تضـــمن للمعركة وقوداً ما تخبو جذوته. ولا تنفذ ذخيرته إن شاء الأستاذ أو شاء غيره.

وأحمد الله على أن لي في كل رأي آراء أو نظرة أرسلها، فضل الناقل، وحسنه المقتفي، فما تضـيق بي وجوه الاحتجاج إن ضـاقت بغيري في هذه السـبل وإن كنت قلت ما لا يقوله الناس في بلادنا، فقد قلت الصـحيح الذي يقوله الناس في غيرها، والذي تقوله طبائع النفوس وغرائزها وميولها ومذاهبها. ولهذه الجريدة أن تسـتبشـر بالرواج والإقبال. فيدفع موقفي منها اليوم. أقلاماً حبيبة طال بها عهد الانصراف السائم عن هذا المجال إلى الظهور والحركة والنشاط. وللجريدة أن تغتبط بمحصــول لا يجشــمها من المشــقة، ويكلفها من الأجر والعناء حتى تظهر الارتياح المتردد. أو كلمة الثناء المغتصبة.

* * *

يقول الأستاذ "فإن صح أن ما سقته مساق التدليل من صور فكرية ولغوية وطبيعية ليس من طبيعته الإقناع، فما أحسـبني فاقداً سـبيله أن سـخرت بعض آراء الأستاذ "يعينني –في تأييد نظرتي إلى الصورة الجميلة، ويزعم أنه رمى بسهم فأصاب مقنعي."

أيريد الأستاذ أن يفهم القراء عنه أنه يحتج بنظرة العاشق على نظرة الباحث إلا أنه قياس من أفشل المقاييس، وأدلها عن الإصفاء وأخلقها بأن يبقى معه الأستاذ دائراً حيث خلفه القراء يدور في مقاله الأول.

أين هو مما سقته في ثلاثين صحيفة تدليلاً على صحة نظرتي إلى الجمال وعمقها وعلاقاتها الوثيقة بواقع النفس ومنطق الفكر؟؟

أكل غايته أن يكون الصراع بيننا أسلوباً جديداً في العد ويمتحن به الصبر والجلد، ويكون سلاحه الساق والقدم، لا النفس والفكر! على أنني –كرياضي قديم– جدير بأن أشبع رغبة الأستاذ، فأغشى معه هذا المجال بساقين نشيطين، وقدمين قويتين.

والشوط ليس بعيداً، إن لم يستهوه القفز وتخطي الحواجز، فما لي عليها طاقة بعد أن أراحني الله من إلحاح النزوات العارضة.

ظن الأستاذ أن الفكرة الفنية في قصيدتي "لم أهواك" قائمة على تجريد الجمال من معانيه، وتضعيف أثره في واقع الحياة والنفوس وهي قائمة على تقديس الجمال وفهمه، والتغني به، وراء أشكاله الملموسة. وسماته الظاهرة. وقائمة على الإعلاء من شأنه وعلى تخيل معاني الحب السامية وتحليلها واستكناه أسرارها العميقة.

والنظرة في القصيدة نظرة عاشق تسلط عليه فكره المولع بتعليل أسباب الحب وتلمس العلاقة بينه وبين الجمال، والرغبة الملحة في فهم مجهولاته الخفية، وليست نظرة أفكار وتجريد واستلاب.

وأنا لم أقارن في القصيدة بين جمال ما في الحياة، وجمال الإنسان ولم أقل إن جمال الحجر، والأرض، والحيوان، والنبات، أخفى معنى من الجمال الإنساني، إنما كنت أتلمس أسباب الحب وبواعثه. أهي الحسن الظاهر الوضيء أم هي وقع الندى في النفس؟ أم هو الرواء الأخاذ؟ أم المعاني المعبرة أم الحس الرفاق المتوفز؟ أم الذكاء وقد يكون في المحبوب ضئيلاً؟ أم الفتون وقد لا يبل غليلاً؟ فإن كانت شيئاً من هذا. ففي البدر، والزهرة اليانعة وفي طلعة السماء البرزة، والأرض المجهودة ونأمة الطير المرسلة، ولفتة الظبي وفي همسة الجدول، وملتقى الزهور، صور حية يناجيك منها ألف وجه من كالح ووسيم، وفضاء لا يعرف الحد والقيد ولا وغزة الضني والسهوم، وهي في الأرض والسماء يتفشى هوى وينساب لمعاناً.

فالجمال هنا في نظر العاشق المفتون معنى وراء السمات والشكوك، معنى لا تحده النظرة، ولا تقيده الفكرة، إنما هو جمال مطلق شائع لا تكون الحياة بما فيها إلا لفظاً هو معناه.

وسر الحركة والسكون والنور والظلمة فيه فلا تكون دنيا عاشقة إذ غاب إلا دنيا سـؤوم جم الكروب طليح، فإذا لاح أشـرقت وتلقته بوجه طلق المحيا صبيح."

وهو بعد ذلك كله معنى النزاع بين النفس والفكر، لا يهتدي السـائل عن حقيقته إلى غاية، ولا يظفر بجواب، وهو مجهول ما يتكشـف عن معنى من معانيه، إلا ليغوص في لجة الغموض والخفاء. فلا جرم إن كان "جهاداً ضـاقت به النفس ذرعاً وصـعاباً موصـولة بصـعاب" ومجهولات من ورائها مجهولات، وأسـباب تختفي فيها مسـبباتها، فلا تكون أخيراً، إلا كما كانت أولاً، الجمال والحب.

والقصـيدة بعد بوحدتها الموصـولة الأجزاء دليل الاسـتغراق التام والوله العميق، يفتنه الحب والجمال، فالإنكار فيها تقرير، والنفي توكيد للإثبات فما فيها ما يصح أن يؤخذ دليلاً على تجريد الجمال من محاسنه ومعانيه.

وكان الأحرى بالأستاذ الأديب أن يسـأل نفسـه، أدامت لهذا الحب وقدته ولهذا الجمال معانيه؟ لتلقاه طبيعته لجواب الحق أو كان خليقاً بأن يسـأل كيف يكون الجمال جمالاً وهو رمز النقص والفقدان والتحول على الزمن.

ثم كيف يخفق الجمال في فرض التحول على منطق العقل العنيد السـافر فيفرضـه على النفس المنتشـية، والحس المفهوم، والقلب الغافل، فتتم له الغلبة بهذا الانقسام الذي هو مظهر سلطانه القاهر في حقيقة سلطانه القاهر.

بين النقد والجمال [18]

(6)

كان خليقاً بأن يسأل هذه الأسئلة ليعرف كيف يكون الضعف لغة القوة القاهرة وسبيلها المهودة. فخليق بذلك أن ينتهي به إلى الطمأنينة على الجمال في نفوس عشاقه وأسراه!!

وحقائق الشعر بعد صور تشكل بها خوالج النفوس الهائمة، وتلبس منها كل يوم ثوباً معاراً تحسبه ثوبها الأصيل. والشاعر العاشق يكون حبيبه في عينه أحسن الناس وأعطفهم في يوم إقباله ومواتاته، واختلافهم من الفتنة والعطف في يوم إدباره. كما يكون الحب يوماً في منطق العاشق نعمة الحياة وشعاعها الضاحك ويوماً نقمة الحياة وظلمتها المطبقة، أو كما تكون الدنيا في عين الناهل المأخوذ بمحاسنها في يومي إقبالها وإدبارها.

والحب في معناه هو الحب في معنى نفس العاشق وولهه، ونشاطه وفتوره، وأمله ويأسه وفرحته وترحته.

والجمال في ذاته ما هو؟ أهو تجاوب القسمات واتساق الملامح، واكتمال الانسجام، أم هو معان مكنونة تعبر عنها ظواهره البادية؟

([18]) - صوت الحجاز -1359/2/18هـ-1940/3/28م.

إن الجمال جمال بما تولد النفوس من معانيه، ونقيس من مشابهه ونتخيل من دلائله وإشاراته لا بما يلقاها به من حدود وزخرف، وإنما هو جمال بما يثير فيها من بهجة ويطلق من أصداء ويحبو من حرية وخصب، فهل تبقى معانيه حية، وتأثيره دائماً على تغير القسمات والملامح وخصب وانطفاء لمستها البهيجة؟

وماذا يبقى من الجمال بعد انقضاء تأثيره في النفس وإثارة كوامنها غير أن يستسلم الزمن المتحول فينطوي فيه كما ينطوي كل شيء فيه، وغير أن يبقى بين أطواء النفس ذكرى، أو معنى، أو رمزاً أو مقياساً، تلقى به جمالاً يخلقه سلطانه الجديد.

أم يريد الأستاذ الصديق أن تبقى كل صورة جميلة صورة جميلة يحبسها الزمن الساحر في حدود لا تخطوها ويقف عندها جامداً ليس به حراك.

أترى ماذا كان يكون نصيب الجمال من فهمنا وتقديرنا وإثارة كوامن صبواتنا لو سكت نداء الحياة في بواطن نفوسنا!؟ أما كان يكون شيئاً لا يختلف عن بقية أشياء الوجود الشاخصة؟ بل ما كانت تكون الحياة كلها لولا هذا النداء.

وهكذا نرى نصيب النفوس في تخيل معاني الجمال وفهمها، يكون على قدر نصيبها من سعة الإدراك، ومدى الحس، ونشاط الشعور، وعمق التصور وامتداد مذاهب الخيال والتوليد!

وقد قلنا في مقال سابق "من يظن أن فرحة الأديب والشاعر والفيلسوف بالجدول والحقل، كفرحة الرجل العادي؟ ومن يرى أن شعور العاشق بأنباء

الحياة ومعانيها ونسـيمها الخافت حوله وفي نفسـه، في حالات سـروره وحزنه، وبأسه وشقائه، كشعور الخالي اللاهي؟"

ولو قلنا ما معنى الحياة في ذاتها، لم يكن الجواب إلا أنه الزمن والحركة والتغير والتحول، وإلا لكانت متحفاً جامداً لا فرق بين الصـور القائمة فيه والصـخور القائمة فيه.

فما دام الزمن يسير بكل شيء. فالحياة تتغير. وما دامت الحياة تتغير أفيكون غريباً أن تردد النفس الإنسـانية صـدى هذا التغيير؟ وأن تسـير في هذا الموكب الحافل تقوده ولا تتبعه؟؟

وقد قلنا "إن الزمن لو كان ربيعاً كله لم يكن للربيع معنى جدته وسـحره ورِوائه" فالجمال هكذا، لم يكن الجمال إلا لأنه المتعة السائحة تهفو إليها النفس وتقبل عليها في لهفة الشاعر باحتمال الفجيعة فيها، فهي تسابق الزمن بشعورها المبهم أو بفهمها الواضح المبين.

وقلنا: هل يسعنا أن نتصـور في الحياة جمالاً غير مسؤوم أو جمالاً لا تصـرفنا عنه صوارف الفهم والاكتفاء وإدمان الذوق والمصاحبة الطويلة؟؟

قلنا هذا وأشـباهه، وكان من حقنا بل من حق منطق الفكر والجدل على الأستاذ الناقد أن لا تصـرفه قصيدتنا "لم أهواك؟" عن الإجابة والتدليل وإطالة الوقوف والتأمل عند هذه المعاني السافرة التي تلبي نداء كل داع.

إن بعض النفوس الشـــاعرة تنفذ إلى ما وراء الســـطور وتحس أخفى معانيها وتسمع أخفت همساتها بحيث لا يعدو بعضها حدود الجمال وخطوطه الواضحة فإن كان طول الفرحة أو دوامها والعكوف على تقديس الجمال وتذوقه إلى ما لا نهاية مما يدخل في إمكان النفس الإنســـانية أو مما يضـــمنه الجمال وتحققه طبيعة الحياة نقول: الأشـكال المحسـة لا خفت الهمسـات خليقة بهذا الدوام لما يتوفر لها من مجالات واســـعة متعددة ولما يتهيأ لها من أســـباب المقدرة على التنويع والإطلاق والتولد، وكانت النفس المحدودة أثمن بانتهاء الرغبة وســـآمة الملل والزهد في الدوام.

ومـا نرانا بمســـتطيعين أن ننكر أن النفس المحـدودة قـد تكون أقـدر على الاجترار لأنها نفس موصـــدة نائمة لدواعي ما تكون فيها فترات الصـــحو والانتباه إلا نادرة، فشـــعورها بما حولها من جمال شـــعور راكد بليد، ما ينتهي تذوقها لمعنى من معانيه إلا وقد بدأت نومتها الثقيلة وركودها العميق.

وبهذا المقياس تكون الحياة في عين الحيوان الســـارح، هي الحياة ما يتغير فيها شـيء عن معناه، ولا ينحرف عن سـبيله، في ما تحسـه أو تدركه أو ترتاح إليه! وهكذا هي في عين المجنون، وهكذا هي في حياة الإنسان إلى الأبد.

أيدري الصـديق الأسـتاذ الأديب الناقد ما هي الصـورة الجميلة التي يبقى لها معناها طويلاً على مر الزمن الممعن؟ هي ذكرى الجمال، وخيال حياته المطوية في النفس، أو في ملعب الحياة والرغبات التي زايلته.

فالجميل المفقود يبقى جميلاً في النفس ولا يفقد سماته وتأثيره ومزاياه الفاتنة لأن الزمن لم يعد جزءاً من حقيقته الزائلة، والمؤلم تبقى صـــورته المحزنة أو المثيرة أثراً تتردد به صور أشباهه وبواعثه.

وحتى هذا لا يكون للبقاء الطويل له في سريرة النفس معنى دوامه واستمراره. ولذلك كانت أسرار النفس وتجاربها المطوية، بحاجة إلى ما ينشرها ويحيي ذكرها ولذلك كان لسوانح الحياة والجمال والمسرة والحزن والسعادة والشقاء، أثرها في إحياء ماضي النفوس والأفكار وبعث ذكرياتها الدفينة!

وقد كانت لكل عاشق أو ناظر وقفة تطول أو تقصر فيها النظرة إلى صورة جميلة ظن أن الحياة خليقة بأن لا يتم معناها بدونها فما فتئ بعدها تنتقل بها الحياة في متحفها الحافل لم ينقص من معناها شيء ولكن يزيد.

وإذا كان الجمود والاحترار من طبيعة بعض النفوس الموصدة، فالسأم والتنقل من طبيعة النفوس المشبوبة، أو لعل أقدر النفوس على استصفاء معاني الجمال هي أحسها بفتنته وأوفاها له وأقدرها على تنويع معانيه واستنطاقها.

وأراني بحاجة إلى أن أردد ما قلته في فاتحة مقالي المتتابع: "ترى أية حقيقة من حقائق النفس أو متعة من متعات الحس، أو طوبى من طوبيات الخيال الخلاب، يبقى لها جمالها على الزمن، أو يفض الختام كل يوم عن جمالها ومعانيه جديدة أخاذة؟."

فلم يسمعني الأستاذ الصديق جوابه على هذا السؤال إنما ذهب يتلمس إصابة مقنعي كما قال –بما حسبه تجريداً للجمال في قصيدتي "لم أهواك؟."

* * *

وصفوة القلب أن الحياة لا تعرف الجمود وهي أقدر على الابتكار والارتجال وليس ما يدعونا إلى أن نسيء الظن بها، لحسنه بطبيعة الأستاذ التي تخشى أن يفجعها التجريد، والاعتراف بسآمة النفس والفكر في الصور الجميلة.

وما أدري أية ضرورة تدعو الأستاذ إلى تحتم دوام التأثير للصورة الجميلة وبقاء معانيها؟ أهو الخوف من إفلاس الحياة، أم هو ضيق أمداء الجمال ومذاهبه فيها؟ أم عجزها عن الارتجال والإنتاج؟ أم الشعور بأن ما يفوت في الحياة هو خير ما يمكن فيها؟ أم وقفة اقتضاها الوفاء لصورة جميلة؟

للأستاذ العقاد كلمة لعلها تسهل لصديقي الناقد هضم فكرة طال بنا الطواف حولها وهي إن كانت تشير إلى غير ما نحن فيه لحرية بأن تهون عليه مبدأ الانطلاق بالنفس والفكر من أثر هذا الوفاء. قال "ليس أسأم العقل والنفس ولا أبطل لعملهما من حصر كل شيء في صورته وحبس كل شيء في ظاهره فإن الحقيقة التي لا جدال فيها أن العقل المطلق لا يرى وجهاً ما لتحتيم صورة من الصور من غيرها ولا يمنع أن تظهر الحياة –أي معانيها– في ألوف من الأشكال المختلفة غير أشكال الآدميين والأحياء المألوفة" فهذه نظرة إطلاق وحرية، تكره التحتيم والجمود. وأرى أنه لو كان الأستاذ عريف يعني

بالصورة الجميلة المثل الأعلى لجمال الوجه، لكان في وسع الزمن أن يفجعه في تأثير معانيه بعد أن تطول الصحبة بينهما وبعد أن يستكنه كل معانيه وأسراره ويحولها إلى نفسه وفكره.

ألا وإن لكل جمال رسالة قصيرة كرسالة الربيع الطلق فهل يضمن لها الدوام منطق الأستاذ ومزاجه الوفي الصادق، كما ضمن القدر للسماء أن تبقى قائمة وللشمس أن تكون في كل مطلع وكل مغيب لها، هي الشمس التي يفصل بينها وبين الزمن اطراد العادة، وعمر الإنسان القصير، ربما تسنى لنا الوفاق لو استطاع الأستاذ الصديق أن يدلنا على حقيقة من حقائق النفس الإنسانية، أو من حقائق الحياة الماثلة، أو المتخيلة، أو من صور الجمال التي لا تمتد إليها يد السآمة ولا يتحول بها إدمان التذوق والاستصفاء، في فكر العاشق أو الشاعر أو الأديب أو الفيلسوف أو الإنسان الحي!